

T
131A

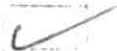
March 8, 1969

NOTICE TO GRADUATE STUDENTS

The Board of Graduate Studies in its meeting on November 1, 1968, decided that all graduate students must include the following " Thesis Release Form " to appear on a seperate page of each thesis:

" THESIS RELEASE FORM "
American University of Beirut

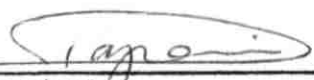
I, NAHIDA FADLI DAHANI:



authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals upon request.



do not authorize the American University of Beirut to supply copies of my thesis to libraries or individuals.


Signature

24/2/1970 "
Date


Emile Rubeiz
Assistant Registrar

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Death in the Novels of Najib Mahfouz

الموت في قصص نجيب محفوظ

by

Mrs. Nahida Fadli Dajani

(Name of Student)

Approved:

Prof. Muhammad Najm

M. Najm

Advisor

Prof. Mahmud Ghul

M.A. Ghul

Member of Committee

Prof. Halim Barakat

H. Barakat

Member of Committee

Member of Committee

Date of Thesis Presentation: 15/2/1970.

الموت في قصص نجيب محفوظ

رسالة استاذ في الآداب

قدمتها

ناهدة فضلي الدجاني

الدائرة العربية - الجامعة الأميركية

في بيروت

شباط - ١٩٧٠

يرتبط فن نجيب محفوظ بمجتمعه ، ارتباطا وثيقا ، فهو يلتزم في رواياته وقصصه ، عالمًا
تضطرب فيه كائنات اجتماعية ، تنتمي الى قطاعات محددة المعالم ، في مجتمع له موقعه المرسوم
في الزمان والمكان .

وتمثل هذه الكائنات ، بمواقفها ، الإنسان المصري ، ابن الطبقة الوسطى ، القاطن
القاهرة ، بعد الحرب العالمية الثانية^{الزوط} وحتى أيامنا .

يرافق نجيب محفوظ هذه الكائنات في صراعها من اجل الحياة ، مرافقة تفصيلية ، تكاد
تصل الى حد المسح الاجتماعي الشامل ، المنبثق عن معرفة محسوسة بطبيعة الشعب ، وعن
معايشة واعية لمشكلاته الحياتية ، وهمومه ، وتطلعاته . وفي رأينا ، ان هذه الميزة الكبيرة في
فن نجيب محفوظ ، ان هي الا حيلة بارعة ، للوصول الى اغوار النفس البشرية ، والكشف عن
اسرار الوجود . فالحلم الاجتماعي التي تعايشها كائناته ، تتصل اتصالا حميما بالقضايا
المتافيزيقية الكبرى - التي هي في الواقع الشغل الشاغل لكل فنان عظيم - قضايا الخير
والشر ، والعدالة بمعناها الاشملى الاظم ، والحرية بمفهومها الكوني ، والمصير ، والفناء ، والمعرفة ،
والفساد ، والسعادة ، والحب ، والثورة .

على هذين الخطين : الخط الاجتماعي والخط الميتافيزيقي ، بنينا بحثنا هذا عن
" الموت في قصص نجيب محفوظ " ، فدونا كل حادثة موت ، وقعت في اعماله الروائية والقصصية ،
وحاولنا ان نعرف اسبابها ، وآثارها ، ونتائجها ، لنخلص الى مفهوم الفنان للموت .

ان نجيب محفوظ ، يحدد مفهومه للموت ، ببساطة باللغة حين يقول : " الموت هو النهاية .. هو الفناء .. " ولقد خرجت بدرس من تأملي للزمن والموت ، هو ان انظر اليهما بعين الانسان الاجتماعي لا الفردى .. هما امام الفردى مصيبة .. لكنهما امام الاجتماعي وهم .. أو لا شيء .. ماذا يفعل الموت بالمجتمع البشرى ؟ لا شيء .. ففي اية لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين . " (١)

ان هذا المجتمع البشرى ، الذى يعج بالملايين ، يتأثر بالموت ، ويؤثر فيه ، يتأثر به نفسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، لا سيما اذا كان مجتمعا له خصائص المجتمع المصرى ، ففي الفترة التي استقى منها نجيب محفوظ ، مادة رواياته وقصصه ، مجتمع الطبقة الوسطى بانتماؤه الدينية والعائلية ، فهو شديد التعلق بأهداب الدين ، مؤمن كل الايمان بقضاء الله وقدره ، وهو شديد التعلق بالأسرة ، ينضوى تحت لواء معيلها ، بآليه يفرضها التمييز بين المرأة العاجزة والرجل الجبار ، وبين طبقة الاغنياء الحاكمين ، وطبقة الفقراء المحكومين .

وهو مجتمع انتقالي ، يصارع التحكم الاجنبى ، والاقطاعية ، والرجعية ، والطبقية ، ليصل الى الاستقلال ، والحرية ، والاشتراكية ، وفي عملية الصراع هذه ، تسقط ضحايا .

والواقع كما يقول غالى شكرى " ان " مرحلة الانتقال هذه ، هي مرحلة محلية وعالمية في آن واحد ، وهو انتقال فكرى وحضارى معا ، لذلك كانت شخوص نجيب محفوظ واحداثه ومواقفه مزدوجة الوجوه والرموز والاغطيه ، لا تكتمل لك معرفة الوجه الا* بجانبه ، ولا تكتشف الرمز الا اذا فضضت علامتين ، ولا تكتشف الغطاء الا اذا خلعت الرداءين . " (٢)

(١) شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد السادس ، حزيران سنة ١٩٦٠ - ص ١٩ .

(٢) شكرى ، غالى - نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد الخامس ، تموز سنة ١٩٦٩ - ص ١٦٦

أى ان شخوص نجيب محفوظ ، يحملون في حناياهم ، المشكلات الحياتية اليومية المنبثقة
عن واقع بعينه ، الى جانب المشكلات الانسانية المطلقة .

لذلك قسمنا بحثنا عن الموت في اعمال نجيب محفوظ ، الى ثلاثة فصول : -

١ - وقع الموت في نطاق الأسرة والعلاقات الخاصة : وعيننا ان نبين اثر الموت ، النفسي ،
والاجتماعي ، والاقتصادي ، في افراد الأسرة ، وفي المتأثرين مباشرة بهذا الموت ،
كالمنتفعين بحدوثه ، اما ماديا ، او نفسيا .

٢ - الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة : وعيننا ان نبين اثر المجتمع في
الموت ، وكيف انه يدفع اليه ، اما بالقتل ، او الاغتيال ، او الانتحار ، او حوادث
السيارات ، او التستر على المرض بداعي الجهل ، والخوف من الفضيحة ، والتشرد .

٣ - الأبعاد الميتافيزيقية للموت : وعيننا ان نبين اثر الصدفة ، والقدر ، في حدوث
الموت ، الى جانب الاستشهاد من اجل العدالة ، والحرية ، والمعرفة ، بمعناها
الانسانية المطلقة .

واعتمدنا في الفصلين الأولين في الاكثر ، على اعمال نجيب محفوظ المرتبطة بحياة
الطبقة الوسطى المصرية من " خان الخليلي " حتى " الثلاثية " . واما في الفصل الثالث ،
فقد كانت قصص الواقعية الجديدة من " اولاد حارتنا " حتى " تحت المظلة " هي الاكثر اعتمادا .
وحاولنا ان نستخلص موقف الكاتب ، وآراءه ، من خلال سياق الأحداث ، وتركيب الشخصيات ،
ومثلها . واستنرنا بآراء النقاد المنشورة في المجلات الأدبية ، والفكرية ، وفي الكتب ، وآراء
الكاتب نفسه ، من خلال مقابلات اجريت معه .

هذا ويعود الفضل في استكمال البحث عناصره الأولية ، الى توجيه الدكتور محمد يوسف

نجم ، المشرف على هذه الأطروحة .

الفصل الأول

وقع الموت في نطاق الأسرة والعلاقات الخاصة

- | | | |
|---|---|-------------------|
| ١ | - | موت الأب |
| ٢ | - | موت الأم |
| ٣ | - | موت الأولاد |
| ٤ | - | موت الحبيب |
| ٥ | - | الانتفاع من الموت |

بالحياة حلوها ومرها ، ومرها على الأكثر ، الأمر الذي يلطف عادة من مرارة الموت .
ومع هذا كان يشعر بحرج شديد ، جعله يتوجس خيفة من شقيقه ان يظنا بحزنه الظنون ،
لما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة ، الا انه كان اعظم ادراكا لحقيقة
الكارثة التي وقعت ، من اخوته ، فكيف تنقصه دواعي الحزن والأسف ؟ واهم من هذا ،
ان " الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا في آل كامل بفضل الأم قبل كل شيء " . (١)

أما الزوجة المفجوعة ، فقد كفت عن الصوت حين دخل ولداها الحجرة ، لأنها
ارادت ان تتركهما ينفسان عن صدرهما ، فتماسكت واتفقة في جلبابها الأسود وقد
احمرت عيناها وانتفخ خذاها وانفها . وحين انتصف الليل ، كانت قد روت قصة
الوفاة للمرة العشرين ، في ذلك اليم الحزين . (٢)

واخت الزوجة ، التي اتت بثياب ريفيه ، هرولت الى الداخل وهي تصرخ " يا
خراب بيتك يا اختي " (٣)

أما كمال عبد الجواد ، الابن الكهل ، في رواية " السكّريه " ، فقد تسمرت قدماه
وراء شبك السرير ، وانعقد لسانه ، وتحجرت عيناه ولم يجد شيئا يقوله او شيئا يفعل له ،
وعانى شعورا قاهرا بالعجز المطلق ، واليأس المطلق ، والتفاهة المطلقة ، وأدرك ان كنه
ساعة الموت الأخيرة ، سيبقى سرا الى الأبد ، وان وصفه بالأم ، او الفزع ، او الغيبوبة ،
رجم بالغيب ، ولكنه على كل حال لا ينبغي ان تطول ، انها اجل واخطر ممن ان
تبتذل . (٤)

(١) بداية ونهاية - ص ١١

(٢) - - - ص ١٥

(٣) - - - ص ١١

(٤) السكّريه - ص ٢٦

بينما صرخت اخته عائشة ، الأرملة الثكلى ، " يا ابي .. يا نعيمة .. يا عثمان . " (١)

أما الأخت الثانية ، خديجة ، القوية الشخصية ، فانها حين بلغت نبأ وفاة والدها ،
قلب البيت الحي من كثرة البكاء . (٢)

بينما مالت الزوجة على اذن زوجها الميت ، وتشهدت بصوت مسموع ، وكررت ذلك ، ثم طلبت
من اولادها ان يخرجوا من الحجرة ، لتقم بواجبها الاخير نحو زوجها . (٣)
الاولاد كلهم بكوا : كمال وياسين الضخم الجثة المزواج ، فتطلع الاخفاد الى الرجلين
الباكيتين في حزن ، ووجع ، وشي من الدهش .

أما ابراهيم شوكت - الصهر زوج البنت - وهو من الاغنياء ، فان اول ما يتبادر الى
ذهنه ، هو ان الجنائز يجب ان تكون جديرة بمقامه . وكذلك رضوان ، الحفيد الوصولي ، الذي
يقترح اقامة سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ، لأن الشارع امام البيت ضيق ، خاصة لأنه
سيوم السرادق وزراء وشيوخ ونواب . (٤)

وأما في رواية " السراب " فلموت الأب وجه آخر ، ذلك ان الأب كان ثريا ، سكيرا ،
بخيلا ، وحين تلقى كامل رؤبة نبأ وفاة والده هاتفا من اخيه ، تملكته في البدء دهشة ،
ثم ما لبثت دهشته ان استحالت خوفا ، لأن الموت يخيفه دائما . ولما افاق من وقع الدهشة ،
استشعر نساءم ارتياح عميق تهفو على نفسه . " ترى متى مات وكيف مات ؟ ألا ما اغرب الموت !!
ان الموت لا يتخلى عما له من فداحة المأساة ، حتى في حال رجل كأبي عاش جل عميره

-
- | | |
|-----|--------------------|
| (١) | السُّرْبَة - ص ٢٦٦ |
| (٢) | - - ص ٢٧٣ |
| (٣) | - - ص ٢٦٦ |
| (٤) | - - ص ٢٦٨ |

عيشة الأموات ، بعيدا عن الدنيا والناس ، وطرحت على نفسي هذا السؤال : من عسى يحزن لموت أبي ؟ أخي مدحت ؟ אחتي راضية ؟ بدا لي انه سيغادر الدنيا غير مودع بحزن أو بأس ، وبدا لي ذاك مأساة افزع من مأساة الموت نفسها . أليس مستنكرا ان يحيا انسان في هذه الدنيا اكثر من سبعين عاما ، ثم لا يترك وراءه راثيا ؟ وجدت عند ذاك عطفًا وحزنًا ، وانها لعاطفة غريبة لم تختلج له في صدرى من قبل ، ولعلها كانت وليدة الارتياح ، لا الاشى ، لانه في مثل حالتي ، قد تجود النفس بالحزن لتدارى سرورها ، او لتعبر عن هذا السرور بطريق ملتو ، ولعلها عاطفة صادقة افصح عن نفسها ، بعد ان ذهبت بموته العوائق التي كانت تعتاقيها . " (١)

وتصارعت في نفسه المشاعر ، لم يستطع ان يقام موجة رقيقة من الارتياح والسرور لكونه سيرث ، على ان شعوره الديني العميق ، احتج احتجاجا صارخا ، وبث في حناياه الخوف والقلق ، فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم . " (٢)

هكذا كان وقع موت الأب المورث البعيد عن اولاده ، المتنازل عن حقه في رعاية ابنه للجد ، مقابل الا يتكلف عليه مليما واحدا . ان كامل رؤبه نفسه ، الذى داخله الفرح لموت أبيه ، يصاب بالهلع لموت جده ، فلقد كان جناح العطف الذى اظله ، فنعم في ظله بالعيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة ، وتصرخ ابنته - امام كامل - صرخة مدوية ، وتولول في وجع " ابي . . ابي " فهي اشد الامل فجيرة وحزنا ، لأنها لم تفارقه طوال عمرها ، اللهم الا ثلاثة اشهر قضتها على مضض ، في بيت زوجها .

(١) السراب - ص ١٧٠

(٢) - - ص ١٧٣

ب - تقاليد الأُجتماعية :

للموت ، ككل مظهر من مظاهر الحياة الأُجتماعية ، تقاليد خاصة ، ولا تقل تقاليد — شأننا عن الأُفراح ، والأعراس ، والأعياد ، وتوثر الطبقة والعلاقات العامة ، والجوار ، — في هذه المظاهر .

حسنين في رواية " بدايه ونهايه " ، كان يعد اخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه ، غضبا لأبيه الذى يحبه ، ولنفسه هو ، كان يهيمه عدد المشيعين بقدر ما تهيمه نوعيتهم ، وحين قلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين ، لم يرا احدا يملأ العين الا جارهم الكرم فريد افندى محمد ، أما زوج خالته ، فكان في حكم العمال ، وليس عم جابر سليمان البقال ، بخير منه ، والحلاق ادهى وأمر ، ونفر غيرهم غيابهم اشرف من حضورهم ، عندئذ انقبض صدره وغشيه كدر عميق ، ولم ترد اليه الروح ويتخلص من قلقه ، الا لما جاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه ووقفت على بعد يسير من البيت ، وغادرها ساع ففتح بابها ، ثم نزل منها رجل ينم مظهره على الألقاب والرتب ، فهرع اليه الاخوة بأدب ، واندس بينهم فريد افندى محمد ، ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة ، التي ينبغي ان يقدرها — كموظف — اكثر من سواء . ولم يجدوا ما يقدمونه له الا كرسيًا — من الخيزران على قارعة الطريق ، فشعروا بحرج غير قليل .

انهم وهم غارقون في الحزن ، لم ينسوا ان يظهروا بغير مظهرهم الحقيقي ، خصوصا ، حسنين ، الذى كان حريصا على الأتقاع عين على القبر ، حفظا لكرامة الأسرة ، في حين ودّ لو يرى كل المشيعين ذلك المفتش الذى انقذه من قلقه .

كان يحس هذه الأحاسيس ، في اللحظات الحاسمة المفجعة ، حين خرج النعش من البيت ، وعلا الصوت من الشرفة والنوافذ ، وحتى حين بلغوا المسجد ، وظهر بعض المشيعين استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الأخير ، كان كل همه ان لا يذهب احد مهما كلف الأمر " لا مقبرة ولا يحزنون " لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا ؟ سيبقى هذا القبر المغصور في العراء رمزا لضياعنا المخجل في هذه المدينة الكبيرة . " (١)

ذلك لأنه من تقاليد الموت ان تبني العائلات مقابر لها ، يتوارثونها جيلا بعد جيل . (٢)

ومن تقاليد الموت ، ان يقدم الجيران لأهل الميت فطير القرافة ، على ان تهدي العائلة ما يماثلها ، عقب العودة من القرافة ، إلا اذا كانت العائلة تعاني فقرا شديدا لوفاء المعيل ، عندئذ ، ترد الهدية في وقتها . (٣)

ولا تختلف رغبة عائلة السيد احمد عبد الجواد في رواية " السكينة " ، عن رغبة عائلة كامل في رواية " بداية ونهاية " ، في وجوب اقامة جنازة جديرة بمقام الميت ، وان كانت هذه العائلة تستطيع ان تحقق رغبتها ، أولا ، لأنها تنتمي الى طبقة التجار ، وتلك كانت تنتمي لطبقة الموظفين الصغار ، ثم ، لأن الميت خلف اولادا واحفادا ، وباتت عائلته كـبـيـره بأصهارها الاغنيان .

ابراهيم شوكت ، يهتف منذ علم بوفاة حميه

- " يجب ان تكون الجنازة جديرة بمقامه " .

(١) بداية ونهاية - ص ١٤ - ١٦

(٢) - - - ص ١٦

(٣) - - - ص ٤٦

ويجيئه الابن الأكبر ياسين

- هذا اقل ما يجب •

أما الحفيد رضوان ، فيقترح اقامة سرادق العزاء في ميدان بيت القاضي ، لأن " الشارع امام البيت ضيق لا يتسع للسرادق المناسب ، مع أن العادة جرت بأن يقام سرادق العزاء امام بيت المتوفي " . (١)

ويوافقون لعلمهم انه سيؤم السرادق وزراء وشيوخ ونواب •
ولأنهم لن يتمكنوا من نشر النعي في جرائد الصباح ، يؤجلون الجنازة الى العصر ،
لتمكن جرائد المساء ، التي تصدر حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر ، من نشره •
وكانت الجنازة كما رسموا ، وكان اصدقاء الحفيد عبد المنعم اكثر عددا • أما اصدقاء
الحفيد رضوان فكانوا اعلى مقاما ، ولفت نفر منهم الأنظار بشخصياتهم المعروفة لقراء الجرائد
والمجلات • وكان رضوان بهم مزهوا ، حتى كاد يغطي زهوه على حزنه • وشيع اهل الحي " جار
العمر " حتى الذين لم يصلهم به سبب من اسباب التعارف الشخصي • فلم تكد الجنازة تخلو
الا من اصدقاء المرحوم نفسه الذين سبقوه الى الدار الآخرة • (٢)

ومن تقاليد الموت ، أن تخلى حجرة الميت من أثاثها القديم شرط الا تهجر وتستوحش ،
فتتحول بتغيير أثاثها الى استعمال آخر • وتوزع المخلقات العزيزة ، يبدأ الأبناء باختيار ما
يرغبون في اقتنائه من اثرا بيهم الراحل ، ثم تختار الزوجة ، وما تبقى ، يوزع على الفقراء الذين
سيدعون للفقيد بالرحمة في مقره الأخير •

(١) السُّرَّة - ص ٢٦٨

(٢) = - ص ٢٧٠

والتقليد الواضح عند هذه الأسرة ، التي كان يمثل الزوج فيها السيد المطلق ، وتمثل الزوجة الظل الأمين ، هو انشغال الأسرة بكاملها في الأعداد للقرافه وتجهيز الرحمة .
 فزيارة القرافه من اوجب الواجبات . وقد اصبح القبر يجمعهم جميعا كما كان يجمعهم مجلس
 القهوة في الزمان الخالي . وتنوح خديجة - الابنة الكبرى - حتى ينال منها الأغيا ، ثم تؤمر
 بالسكوت نادبا لاستماع تلاوة القرآن . (١)

وفي رواية " السراب " ، تظهر الرغبة في جنازة كبيرة ، الا انها تظل رغبة ولا تتحقق ،
 لأنه لم يكن للميت - برغم ثرائه - معارف ، ولم يكن للعم اصدقاء في القاهرة . فلم يزد عدد
 المشيعين على عشرين ، مما دعا العم لأن يقول متأثرا : " انه سيحيي ليلة المأتم في بيته
 بالفيوم . " (٢)

ومع ان اولاد الميت عاشوا بعيدين عنه بعد طلاق امهم ، فان ابنته الوحيدة ، راضيه ،
 عملت بتقاليد الموت ، فصاحت ساعة خروج النعش من البيت .

ومن تقاليد الموت ، أن يجتمع آل الميت الأقربون في الليلة الأولى ببيته ، وقد
 عملت هذه العائلة بهذا التقليد ، الا ان حديثها كان عن الوراثة . بدأ العم العملي بالتحدث
 عن الاجراءات الواجبة لأثبات الوراثة ، واقترح ان يقدمهم الى صديق له في وزارة الأوقاف ،
 ليسر لهم قبض مرتباتهم الشهرية ، ثم اتفقوا على ان يبيعوا بيت ابيهم الكبير ، ويتقاسموا ثمنه .

وبرغم حقد الأم على زوجها المتوفي ، فانها أصرت على تلقين ولدها الشاب ، تقليدا
 من تقاليد الموت ، وهو الدعوة للميت بالرحمة " اياك وان تفرح لموت احد . لا تذكر اباك من الآن
 فصاعدا الا دعوت له بالرحمة ، فما احب لك ان تسر لموت انسان مهما كان هذا الانسان . " (٣)

(١) السكوت - ص ٢٧١-٢٧٥

(٢) = - ص ١٢٢

(٣) السراب - ص ١٢٥

وتحدثنا رواية " السراب " ، عن تقاليد موت جد كامل " الأميرالاي عبدالله بك حسن " الذي توفي فجأة في القهوة بين اصحابه ، احضره اصحابه الى البيت ، وسجوه على فراش الموت ، واقبلوا عليه يقبلون جبينه واحدا في اثر آخر ، وعزوا ابنته ، وخرجوا من الحجرة صامتين ، وتطوع احد هم بابلاغ وزارة الحربية ، على ان تشيع الجنازة صباحا .

وكما هو متبع في حالات الموت عامة ، أبلغ الأهل وحضروا كلهم ، " ولما حم الوداع امتلأت الشرفة بالباكيات واطلقت المدافع تحية لجدته وحمل نعشه على مدفع سارت بين يديه فرقة من الجيش " . (١)

ج - الاثر النفسي :

يشير موت الأب في النفوس ، مختلف المشاعر ، حسب مكانته وموقعه في العائلة ، فمن تشكيك في العدالة الالهيه ، الى شعور بالمهانة ، الى احساس بالضيق والفراغ والوحشه ، الى ارتياح مشوب بالقلق .

ولما كانت كل العائلات التي يكتب عنها نجيب محفوظ ، عائلات مسلمة مؤمنة ، تنتمي الى شريحة في المجتمع يطغى الدين على كيانها النفسي ، والروحي ، ويسير حياتهم الاجتماعية بوحى من تقاليد ، فانه من المسلم به ، ان تتقبل الموت كحقيقة لا تقبل جدلا .
" فالموت حق " " وقضاء الله " . الا اننا نجد بعض شخصيات هذا الفنان ، تقف متشككة في العدالة الالهيه امام الموت . وينبثق شكها في البدء ، من وضعها الاجتماعي الذى يتأتى عن الموت ، وهذا الموقف ، كما يعتقد الأستاذ ادوار خراط ، " هو الشغل الشاغل لكل فنان عظيم ، والفنان يلجأ الى الهمم الاجتماعية التي تتصل على الفور اتصالا حميما بالهمم الميتافيزيقية الكبرى ، همم الخير والشر ، والعدالة بمعناها الأشمل الأعم ، العدالة الكونية ان شئت ، همم المصير والفناء والمعرفة والفساد والسعادة والمحبة " . (١)

حسن في " بداية ونهايه " يهتف وقد انقطع المورد - لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا (٢)

ويجيب صوت اخيه المؤمن : " الا ترى ان الله اذا كان مسئولا عن موت والدنا ، فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه " . (٣)

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣ ، يناير سنة ١٩٦٣ -

ص ١٨

(٢) بداية ونهاية - ص ٢٢

(٣) - - - - - ص ٣٢

ولم تكن قلة المعاش، الهاجس الذي استبد بالعائلة، بل ان الموقف الصارم الذي اتخذته الأم في تحديد المسئوليات، ورسم خطة العيش الجديدة، واضفاء جو الحزن والجديّة على البيت، قد زاد من توتر النفوس الشابه، وافتقادها لجوعائلي مريح .

"بيدوان" الحياة لم تعد تطاق، ولولا المرحم والدنا ما عرفنا المرح :

- ليتنا ما عرفناه قط، ليتنا ما عرفنا التدلل ابدا، اذن لهانت علينا الحياة الجديدة المقضي علينا بها . ليس الفراق شرما في الموت . ان الفراق حزن المطمئن . متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير في الحزن، لشد ما نتغير ونتدهور، ولكن ينبغي أن نصبر أو في الأقل ان نتظاهر بالصبر . أكبر جريمة في نظري ان نضاعف بجزعنا شقاء أمنا . (١)

وفي سبيل التخفيف من شقاء الأم، قهر الشبان نفسيهما، وتنازلا عن أكثر شهيء يحبانه : الاشتراك في نادي كرة القدم، وهما من خيرة اللاعبين . وقبلًا بعد ثورة غضب، ان تعمل اختهما خياطة .

"وأيقنا ان خسارتهما بفقد ابيهما لا تعوّض ابدا . (٢)

أمّا الأم، فكانت تحرم على نفسها البكاء امام ابنائها، خشية ان تعاودهم حدة الحزن . لم يكن لهم من احد يعتمد عليه سواها، فوجب ان تظهر بمظهر الرجولة . ولو وجد هذا الشخص للاذن بالدموع كسائر النساء، ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد . وفضلا عن هذا كله، فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها، بما جبهها من همم العيش وأثقاله، ووجدت نفسها في الغالب مضطرة الى تناسي احزان القلب، لتناضل ما يتهدد اسرتها من الضراء " يحزفني نفسي الا اجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى، ولكن ما الحيلة؟؟ حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء . (٣)

(١) بداية ونهاية - ص ٣٧

(٢) - - - - - ص ٣٨

(٣) - - - - - ص ٤٤

ولحق نفسه - البنت الصبية - شعور بالخزي والهوان والضعف ، لأنه بموت أبيها ، فرض عليها ان تعمل خياطه ، فشعرت بأنها تهوى من عل ، وانها امست فتاة اخرى . ليس بين الكرامة والضعف الا كلمة ، كانت فتاة محترمه فانقلبت خياطه " ان حزني عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذي مسنا بعده فحسب ، ولكن لأنّ هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . اني آلم لا لآلمه ، لا بد انه يتألم لنا ، لشد ما كان يحبني . كأنه يحدث ما يرصدني من شقاء . لله ما الطفه واعذبه ، لم يكن مثله احد في الرجال . مات . . مات . . لن انس ما حييت ايماءته الى صدره وهو ملقى على الكنبه ، ابي يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة بغيضه مفاجعة لا خير فيها . . . وحيدة ، وحيدة ، وحيدة في يأسى وألمي ، ثلاثة وعشرون عاما ! ما ابشع هذا . لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا ، فكيف يأتي اليوم أو غدا ؟ لا فائدة سوف اظل هكذا ما حييت . " (١)

وبلغ شعور نفسه بالمهانة واليأس اثر يتمها حدا جعلها تهتف " اني ميتة كأبي ، وهو في باب النصر وانا في شبرا . " (١)

أما شعور كمال عبد الجواد باليتم ، فكان من نوع آخر ، وبالرغم من انه كان كهلا ، ولا حاجة به لمال أبيه ، او رعايته ، الا انه احسّ بالفراغ . " فقد كان الأب - حتى بعد انزوائه - يملأ هذه الحياة ، فلن يكون غريبا اذا وجد غدا البيت غير البيت الذي عهد ، والحياة غير الحياة التي ألفها ، بل عليه منذ اللحظة ان يعد نفسه لدور جديد . " (٢)

أما الزوجة امينة ، فهي التي هدها الترميل بعد الشك ، فقد عاشت حياتها عبدة مطيعة لسيدها . هي سيدة مؤمنة بقضاء الله ، وحريصه ، كأم حسن في رواية " بدايه ونهاية " ،

(١) بداية ونهاية - ص ٤٩

(٢) السكّريه - ص ٢٦٦

على الآ تبكي او تحزن امام اولادها ، لتشجعهم على النسيان ، فلا ينال منهم الحزن أى منال .
ولكنها ما ان تخلو الى نفسها حتى تبكي الى ان تجف دموعها ، ذلك انها اصبحت تحس
بفراغ كبير في حياتها ، " لم يعد لي شأن في هذه الدنيا ولم يعد لي عمل ، وكل ساعة من
ساعات يومي مرتبطة بذكرى سيدى . " (١)

وانزوت امينة في حجرتها ، وانقطعت عن تعاطي أى عمل من اعمال البيت ، سوى تجهيز الرحمة
وزيارة القرافه . وانقطعت صلتها بالمستقبل ، والآ فيما يتعلق بالدعوات الصالحات لابنائها
بأن يمتنعهم بطول العمر ، ويقرأعنيهم بأفراح الحياة .

أما بالنسبة لعائشة ، ابنتها الأرملة الثكلى ، التي فقدت زوجها واولادها وهي فسي
عزالشباب ، فقد كان موت الوالد استمرارا لحالتها البكائية ، بل ان موته ، قد هاج حزنها ،
فهي تبكي اباها ، وابنتها ، وابنيها ، وزوجها ، وهي تعيش مع الموتى في صحوها ونومها ،
تحلم بأنها رأت اباها قابضا على ساعد نعيمة بيد ، وعلى ساعد محمد بيد ، حاملا عثمان
على كتفه وقال لها انه بخير ، وانهم بخير . فسألته عن سر النافذة التي نورت لها في السماء
ثم توارت الى الأبد ، فتجلت في عينيه نظرة عتاب ولم ينبس .

والحق ان عائشة بعد فقد ها اولادها وزوجها ، انقلبت الى انسانه تهوى التحدث
عن المصائب والغرائب ، مفرطة في التدخين وشرب القهوة ، " كأنما كانت تعتز بدرجةها الممتازة
في دنيا الشقاء . " (٢)

في حين يبدو كامل رؤبه الذى عاش حياته جبانا غير واثق من نفسه وعاجزا عن تحقيق
غاية من غاياته ، مسرورا برغم قلقه ورهبته من الموت ، تصطرع في نفسه المشاعر والتأملات ،

(١) السَّكْرِيه - ص ٢٢٢

(٢) - - ص ٢٢٣

"أَتكون الثروة المنتظرة وسيلتي للسعادة المرموقة ،أم تكون أداة جديدة من أدوات القدر التي يستعملها في السخرية من المخلوقات الضعيفة ،لقد سخر من فقرى وعجزى ،وانه لقادر على ان يسخر من ثرائى وقوتى ،ليرينى انى على الحالين مقضى عليّ بالحسرة والتعاسة ."(١)

انّ الثروة التي هبطت عليه بعد وفاة ابيه ،لم تمنحه الراحة النفسية ،وان منته بأنه على الاقل سيتمكن من ان ينافس أى انسان ،يفكر في خطبة فتاة احلامه ،بلى انه اعتبر حالته بعد الغنى ،حالة جنون " ولكن مسني جنون لم يكن لي به عهد ،جنون محب لا يقعه الفقر ،جنون من تبدو له السعادة ممكنه ."(٢)

أما الحالة النفسية التي اعترضته بعد موت جده المعيل ،فقد كانت مزيجا من الخوف والتشاؤم . ألمه ان يجد نفسه مسئولا عن غيره ،وهو الذى ألف ان توكل مسئوليته بغيره . تجهم له وجه الدنيا ،وخارت عزيمته ،وامتلأت نفسه تشاؤما ،حتى توقع شرا وراء كل خطوة يخطوها ،وخشي ان تستغني عنه الحكومة كموظف ،وخشي ان يصادفه حادث فسي الطريق ،يقضي عليه بعاهة تقعه عن السعي من اجل الحياة .

نموذج للأنسان الاثكالي الجبان الذى يبحث دائما عن معيل يمدّه بالمال ،حتى لو اتى هذا المال نتيجة لموت ابيه . . " وتمنى لو يقدر ان يقتل اياه ."(٣)

أما الأم الجزعه لوفاة والدها ،الحاقدة على مطلقها ،الشاعرة بأنها ستصبح حملا ثقيلًا على ولدها ،فتظل منسجمة مع نفسها ومع موروثها الديني ،وهي تنهي ولدها عن بناء آماله في الحياة ،على موت انسان " لا تبين آمالك في الحياة على موت انسان . الأعمار بيد الله ."(٤)

-
- | | | | | |
|-----|--------|---|---|-----|
| (١) | السراب | - | ص | ١٧٣ |
| (٢) | - | - | ص | ١٧٧ |
| (٣) | - | - | ص | ١٣٤ |
| (٤) | - | - | ص | ١٣٣ |

د - اثره الاقتصادى والاجتماعى :

يسبرز اثر موت المعيل اقتصاديا واجتماعيا ، في رواية " بداية ونهايه " ، بروزا واضحا ، فبموته انقطع المورد ، كان موظفا ولم يخلف شيئا الا " معاشه وقدره خمسة جنيهات لورثته : المكونين من ام ، واربعة اولاد .

الأم القوية الشخصية المدبرة ، تتولى زمام الامور ، وتخطط سياسة لعيشة شديدة التقدير . " ولا ملهم مصروف للاولاد " ، يحرم حسين وحسنين من اشتراك نادى الكره ، من السينما ، والروايات . حتى الاكل يؤمران ان يتناولاه من الغداء المدرسي ، رغم ما يلحق الاكلىين حتى الشبع في المدرسة ، من غمزر .

ويؤمر حسن - الاخ الاكبر - ان يجد لنفسه عملا ، فلا مجال لا طعامه في البيت ، لا سيما وانه عاطل عن العمل ، ومن يوم ترك المدرسه وهو لا يثبت في عمل معين . أما نفسه ، فلتعمل خياطه ، ولطالما خاطت للجارات محبة ومجاملة ، فلتتقاضى على تعبها مكافأة .

وبرغم معارضة الاخوة وشعورهم بالمهانة من عمل اختهم خياطه ، فقد فرضت الام على نفسه ان تقبل " لست احب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة احكام ولا حيلة لي " . (١) ولم تعف نفسها من مواقف الذل ، فقد كان عليها ان تسعى وراء همومها الجديدة ، ذهبت الى وزارة المعارف تلاحق صرف معاش زوجها ، ولما علمت ان الاجراءات الروتينية ، تؤخر الصرف عدة شهور ، لجأت الى وساطة احمد بك يسرى ، المفتش الكبير ، الذى كان صديقا لزوجها ، وحضر الجنازة . . . وعنده اكتشفت ان صداقة الغني للفقير ، لا يمكن ان تكون صداقة الند للند

"ولعله كان صديقا من اصدقاء الدرجة الثالثة ، كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه ، دون ان يعده ندا او صديقا كسائر البكوات والباشوات " (١)

أما صداقة الند للند ، فقد ظهرت عند جيرانهم الذين كانوا بمستواهم ، يم كان الأب موظفا ، اذ تعاطف هؤلاء معهم في محنتهم ، بطريقة تبقي على كرامتهم ، فكانت الزوجة ، أول زبونة للخياطة عند نفيسه ، وكان الزوج ، أول من عرض على حسنين وحسين ان يدرسا ولده بعد الدوام المدرسي ، مقابل اجر .

الفقر الذي دهم العائلة بموت معيها ، اضطرها الى التنازل عن سكنها ، الى سكن وضيع ، شقه ارضيه بمستوى الفناء الترب ، محرومة من الشمس والهواء ، لا شرفة لها ، ونوافذها مطلية على عطفه جانبية تكاد تبدو منها رؤوس المارة . ثم اضطرها الفقر الى بيع الاثاث ، بدأ البيع بفراش الأب ، وانتهى بمعظم اثاث الشقة ، ولم يبق فيها الا ما كان لاستعماله حاجة ملحة .

والفقر ، هو الذي خرج بنفيسه الى الشارع لابتياح الحاجات من البقال بعد طرد الخادم ، لحاجتهم الى أجره ، وهو الذي اضطرها للعمل في البيوت كخياطه ، وكان لهذا الخروج ، اثر قوى على مشاعرهما التي افتقدت بموت الأب ، القلب الذي يحبها ، ويعطف عليها ، ويبادلها المودة ، والتي آلت الى تصرفات اودت بحياتها .

ولم يكن الحب محرما على نفيسه وحدها ، بل انه كان محرما ايضا على جميع افراد العائلة ، فحين احب حسنين ابنة الجيران ، الذين مدوا لهم يد المساعدة ورغب في خطبتها ، كان موقف امه شديد القساوة " لك قلب تحسد عليه فانه يستطيع رغم فجيعتنا وتعاستنا ان يعيش " ،

وان يستهين بنا جميعا في سبيل سعادته ، والحق اني ذهلت حين حدثني فريد افندي عن آمالك الواسعه ، وهيامك العجيب ، ولكنني حدثته بدوري عن كفاحنا وتعاشنا ، حدثته عن اثاثنا الذي نبيعه قطعة قطعة ، لنحصل على الضروري من القوت ، وعن شقاء اختك التي تمتلئ من الخياطة وتقطع النهار بين هذا البيت وذاك ، ثم صارحته بأن احدا من ابنائي لن يتزوج حتى ينهض بأسرته المنهارة . (١)

ام قاسية ، عنيفة في الحد من تطلعات اسرتها ، وطلباتها ، ورغباتها . وقد دفعت ثمن هذه القسوة ، التي تجلدت بها في سبيل اسرتها . اذ انهد حيلها وهرمت في عامين ، كما لم تهرم خلال نصف قرن من الزمان ، فنحلت ، وهزلت ، حتى استحالت جلدا وعظاما ، كانت تعمل النهار كله ، تطبخ ، وتغسل ، وتكنس ، وتمسح ، وترتق ، وترفو ، وترعى ابنيها خاصة ، تحثهما على العمل وتكسح من نزواتهما ، وتحول بينهما وبين الاشتراك في الحياة السياسية ، خوفا على حياتهما بعد مقتل الطلاب في المظاهرات من جهة ، ولجهلها التام بالسياسة ، واستغراق الأسرة مشاعرها .

ونجحت في ابعادهما عن الاشتراك الفعلي في المظاهرات ، الا انها لم تقدر ان تمنعهما من التفكير ، والتأمل ، وابداء الرأي ، فوطنهما محتل ، والشعب يناضل للاستقلال ، والشباب يسقطون شهداء لتحقيق الاستقلال ، ثم انهما يعتقدان ان حالتهم الاجتماعية متأثرة بالوضع السياسي ، أى بالاحتلال " لو لم يكن الاحتلال ، لما تركت اسرتنا بعد موت أبي بلا معين . " (٢)

الا ان الأم ، التي هي نموذج - كما يقول محمود حشمت عبدالظاهر - "للام المصرية الجاهله غير الواعيه بحقيقة المشكلة وجذورها ، لا تعلم ان مشكلة اسرتها جزء من المشكلة العامة ،

(١) بداية ونهايه - ص ٩٦

(٢) - - - - - ص ١٢٦

لذلك لم تع ما قاله حسنين عن وضع الأسرة في ظل الاحتلال ، وهي منذ البدء لا تحفل
بالأحداث العامة التي تساق إليها أحيانا ، كل ما يعينها ان تصل بابنيها حسين وحسنيين
الى بر الأمان وان تأوى الأسرة منهما الى ركن ركين . " (١) لذلك فانّ أول يوم بهيج
منذ عامين كثيبين ، كان يوم حصول حسين على البكالوريا . ففيه طابت النفوس ولهجت
الأسن بالشكر لله . وتكرس حسين ضحية جديدة للعائلة بعد نفسه ، فلا بد ان يعمل ،
ويكسب رغبته في اتمام تعليمه العالي " ينبغي ان يضحي احدا ويرضى بالتوظيف الآن ، وهذا
هو واجبي انا ، الأخ الأكبر وصاحب البكالوريا ، اني ادرك الحال على حقيقتها ، واعلم
انه من القسوة الشريرة ان افكر في تكملة تعليمي ، فلأرض بحظي ، ولندع الله جميعا
ان يوفقنا الى ما نريد . " (٢)

ولم تقف تضحية حسين عند قبوله بالوظيفة بعيدا عن بيته في طنطا ، وانما كان عليه
ان يكسب جماع رغبته في الزواج ، بعد ان عثر على الفتاة المناسبة ، واصطرت في نفسه
قوتان : مشاعره ، وواجبه نحو أسرته ، وانتصر الواجب .

واذا كان الواجب قد انتصر عند حسين ، فانّ التطلعات الطبقية ، والمطامح ، والرغبة
في تغيير الواقع المخجل ، كانت دائما تنتصر عند حسنين ، ولم يكن يهمه من تكون ضحيته ، اخته
نفسه ، أو اخاه حسن ، الذي احترف البلطجة ، والذي اعتبر حسنين حياته فضيحة يجب التستر
عليها ، أو اخاه حسين الموظف التعيس في طنطا ، أو ابنة الجيران التي احبها ومناها
بالزواج .

(١) عبد الظاهر ، محمود - النهاية في بداية ونهاية - مجلة الآداب - العدد ١١ ، تشرين

ثاني سنة ١٩٦٠ - ص ٤٤ .

(٢) بداية ونهاية - ص ١٢٩ .

وكان نصيب حسن من الفقر الذي ألمّ بالعائلة بعد موت الوالد ، هو ترك البيت ، والتسكع في الحانات ، ومرافقة المومسات ، والمهرين ، والمجرمين ، والمقامرين ، عمل مطربا في الحانات ، وراعيا للمومسات ، وفتوة ، ومهربا ، لكنه برغم انتهاجه هذه الحياة لم ينس عائلته ، وظلّ يمد لها يد المساعدة ، فكان يوافيها بين الحين والحين بفخذ خروف • واليه لجأ اخواه ، برغم فجيعتهم بواقعه ، طلبا للمعونة المادية : حسين ، عندما احتاج لمصاريف السفر بعد تعيينه كاتبا في مدرسة طنطا ، وحسين ، عندما قبل تلميذا بالمدرسة الحربية •

وانتهى المطاف بحسن الى أن أصبح طريد العدالة ، هاربا من وجه البوليس . (١)
في " الثلاثية " ، تبدأ آثار الموت الاجتماعية تظهر ، منذ مرض السيد احمد عبـد الجواد ، فبعد سقوطه بنوبة ضغط ، وهو يمارس فسقه في بيت العالمة ، تفرض عليه حياة قاسية : ينقطع عن السهر ، والشرب ، والسمر ، ويتبع نظاما قاسيا ، وباشتداد المرض عليه ينقلب في علاقته مع اولاده ، من أب متسلط متجبر ، الى صديق لطيف يتقبل المناقشة ، ويقبل بزيارة ابنه الكبير له ، وعودته للبيت ، بعد ان تركه اثر زواجه من خطيبة اخيه الشهيد فهمي ويلاقي العائد صفحا من زوج ابيه ، اكراما لمرض الوالد . (٢)

ويضطره احساسه باقتراب اجله ، الى ان يبيع دكانه ، وكان يبيع الدكان حدثا هاما في حياة الأسرة ، ليس من الناحية الاقتصادية ، فالمال المدخر متوفر ، وانما لأن ذلك كان يعني ، ان يلائم السيد بيته ملازمة تامة ، بانتظار ان يوافيه الموت . ولما كان السيد مسلما مؤمنا ، برغم حياة الليل الفاسقة التي عاشها ، فانه لم تكن له امنية في ايامه الاخيرة ، سوى حسن الختام ، " اني اسأل الله اذا حمّ القضاء ان يكرمني بالموت ، أما الرقاد اعواما بلا حراك • • اللهم رحمتك " (٣)

(١) بداية ونهاية - ص ٣٥٥

(٢) قصر الشوق - ص ٤٤٣

(٣) - - - - - ص ٤٥١

ومن أكثر المظاهر الاجتماعية وضوحا ، هو انقلاب الآتية في حياة الزوجين ،
فبعد ما كان محرما على الزوجة ان تغادر البيت ليلا او نهارا ، بينما يقضي عونها في الدكان ،
وليله في السهر والسمر ، اصبحت هي التي لا تمكث في البيت ، تقضي نهارها تجول في القاهرة
من مسجد الى مسجد ، وصار هو جليس المشربه :

- " ما شاء الله ، من طلعة الصبح يا وليه ؟؟

- زرت سيدتك ، وزرت سيدك ودعوت لك وللجميع .

- أيصح ان تتركيني وحدى كل هذا الوقت ؟؟

- انت اذنت لي يا سيدى ، ما احوجنا الى الدعاء ، توسلت الى سيدى ان يرد اليك

صحتك حتى تروح وتغدو كما تشاء ، كما دعوت لعائشة وللجميع . " (١)

ان السيد ، الذى عاش والأصدقاء حواليه ، يملأون حياته انسا ولهوا وصفاء ، قد امسى
وهو على فراش المرض وحيدا ، كأنه لم يعرف من الناس احدا ، لا زائر ولا عائد ، كمال ابنه ، يجالسه
خطفا كالطيف ، وعائشة ابنته ، منصرفة عنه الى احزانها ب وفاة زوجها وأولادها ، حتى مناجاة
الرحمن افتقدتها حين حيل بينه وبين الصلاة .

هذا قبل الموت ، واما بعده ، فتعود الأم الى ملازمة بيتها ، وتنقطع عن زيارة المساجد ،
ولا تخرج الا لزيارة القبر الذى سكنه ولدها الشهيد قبل أبيه ، والذى اعتبرته منذ ذلك الحين ،
حجرة من البيت ، لكنه في اطراف الحي . حتى عرس حفيدها الذى تم بعد سنة واربعة
شهور من وفاة زوجها ، لا تحضره ، لا هي ولا ابنتها عائشة " انا لا اشهد الا المآثم " (٢)

ويستمر باقي الأولاد في حياتهم العادية .

(١) السَّكْرِيه - ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

(٢) - - ص ٣٢٩

وفي رواية " السراب " ، يظهر الأثر الاقتصادي والاجتماعي بتناقضه ، فحين مات الجد المعيل وانقطع معاشه ، هبط مستوى معيشة العائلة ، ترك كامل رؤبه ووالدته بيتهما الى بيت اصغر ، واستغنيا عن الخدم بكثير من الكمد والحياء ، حتى ان الأم اضطرت ان تكذب وهي تورد سبب الاستغناء حفظا لكرامتها " آثرت الكذب على الاعتراف بالفقر " (١) وعملت هي ، التي لم تعمل ابدا ، في خدمة البيت ، برغم بلوغها منتصف الحلقة السادسة من العمر .

وأما كامل ، فقد اصبح قانطرا من نيل حبيبته ، بعد زواجه تحت وقر الفقر ، ولكي يهرب من واقعه المرير ، لجأ الى الخمر ، واصبح الحوذي الذي يأخذه الى الحانة الرخيصة ، مشـمـيره في الدنيا ، بعد امه .

وقد كان موقفام كامل في " السراب " ، كموقفام حسن في " بداية ونهاية " ، كلتاهما عارضت زواج الأولاد في حالة الفقر ، لشعورهما بالحاجة وعدم الاستقرار .

ويختلف الأثر الاقتصادي والاجتماعي في حالة وفاة الأب المورث ، فبعد حصول كامل على الثروة ، انتقل الى مسكن لائق ، وأعاد الخدم الى البيت ، واقدم على الزواج من فتاته ، فتحقق بذلك امل حياته .

٢ - موت الأم :

أثره النفسي والاجتماعي :

لم يحصل ان مات ام في اعمال نجيب محفوظ وتركت اولادا صغارا ، فأحدث موتها ازمة اجتماعية ، او خلف عقدا نفسية ، كتلك التي يخلفها اليتيم المبكر ، الا في رواية " اللص والكلاب " . وكل الأمهات فيما عدا ام سعيد مهران ، متن وأولادهن صبايا أو شباب ، وخلفن بموتهن ، آثارا نفسية ، واجتماعية ، مختلفة باختلاف سيرهن ، ونهـج حياتهن ، وتركتهن .

تمرض ام سعيد مهران ، ابن بواب عمارة الطلبة الذي حل " وامه مكان ابيه عقب موته ، فنهض بالمسئولية في سن مبكرة ، فياخذها الى المستشفى وهي في حالة نزيف ، ويهرع الى الطبيب الشهير كي يسعفها بالدم . يزدريه الطبيب ، ويتفحصه بعينين زجاجتين مستنكرا . فيغضب سعيد غضبة رجل برغم حداثة سنه ، ويصبح محتجا لاعنا ، ويرمي بمقعد الى الأرض ، فيحدث دويا ، وتتطاير قشرة مسنده . ويطرد وامه من المستشفى ، وبعد شهر من الحادث تموت امه في قصر العيني ، وتظل اثناء احتضارها قابضة على يده ، وتأبى ان تحول عنه عينيها .

في ذلك الشهر بين النزيف والموت ، سرق سعيد اول مرة في حياته . ووجد من رؤوف علوان ، طالب الحقوق آنذاك ، تشجيعا " لا تخف ، الحق اني اعتبر هذه السرقة عملا مشروعاً " (١) وكانت تلك انطلاقته نحو حياة الاجرام .

في رواية " بين القصرين " تمثل ام ياسين ، المرأة المزواج ، التي تملأ سيرتها ولدها ،
خجلا وغضبا ، فينقطع عن زيارتها ، الا انه يذهب اليها وهي على فراش الموت بدافع الواجب
وحده ، " ما من قوة كانت تستطيع ان تعيده اليها . . الا الموت . . الموت " .

وفي حضرة الموت ، تحاول الام تبرير هفواتها المؤلمة امامه ، وتشهد الله ان قلبها كان
دائما مفعما بالايمان . وتبلغه ان خوفها من رفضه ان يزورها ، كان اكثر من خوفها من الموت
نفسه . وتتمنى ان تسمع من ولدها كلمة حب وعفوع عن الماضي ، فيليي الولد طلبها وهو متشبث
بعاطفته الصافية التي عقد العزم على التشبث بها من بادى الامر ، فقد اعادته حالة امه وهي
على فراش الموت ، الى طفولته ، كانه يلقي ام طفولته التي احبها قبل ان توارى عنها قلبه
اللام .

لقد محا الموت من قلبه ، كل حنق ، وكل طمع بالميراث ، وودع امه بقلب ابن ، رغم
احساسه بالحرج من الجنازة ، التي ستجمع اقدم الأزواج واحداثهم ، ولن يكون في وسعه ان يطردهم
من الجنازة ، فتلاحقه الفضيحة حتى اللحظة الاخيرة .

ولم يبك في جنازتها ، الا انه لم يقصر في واجبه نحوها ، وحزن عليها ، وأقام لها
مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعه كان يزور القرافه محملا بالرياحين والفواكه " ان للرجـال
حزنا غير حزن النساء " (١)

ولم يرث ياسين عن امه كل ما خلفته ، فقد سرق زوجها الاخير الحلي والنقود ، فبقى
للولد العقار الذي سميت الروايه باسمه ، لما شهد من احداث ، كان بطلها ياسين المزواج كأمه .

وفي رواية "السمان والخريف" ، تموت الأم في ذروة انكسار ابنها السياسي والوظيفي ،
تموت في القاهرة ، وهو في الاسكندرية ، فيكون تعليقه الفوري ، مرتبطا بحالته النفسية العامة ،
" هذا هو المصير الأخير لكل مسكين وكل جبار ، أجل لكل جبار " (١)

لكنه ساعة الدفن ، خرج عن رزائته ، فاغرورقت عيناه ، برغم ما بذل من جهد
صادق لضبط مشاعره .

لقد جلب له موت امه ، مثل زواج خطيبته من ابن عمه ، جلب له الحزن . .
وكان أول شيء عمله بعد الانتهاء من تقاليد الموت ، ان علق على باب بيت امه اعلانا
" للبيع " ليتمكن نصيبه منه ، ان يعيش حياة الأعيان ، أطول مدة ممكنه . (٢)

وفي " السكّريه " ، يحدث موت الأم ، مزيدا من الأحزان لأولادها وأحفادها ، ويضاعف
الفراغ الذي خيم على البيت ، بموت ابنها ، وزوجها ، وثلاثة من أحفادها ، ويغير معالمه ،
ويدفع بكمال الى الأعراق في التأملات ، " لعلك تقول غدا بحق ان الموت استأثر بأحباب
الناس اليك ، ولعل عينيّك ان تدمعا حتى يزجرك المشيب . والنظر الى الحياة كمأساة
لا يخلو من رومانطيكية طفليه ، والأجدد بك ان تنظر اليها في شجاعة كدراما ذات نهاية
سعيدة هي الموت . ان الأم تموت وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت " . (٣)

وفيما الأم تحتضر بعد اصابتها بالشلل ، وأفادة الطبيب انها لن تعيش سوى ساعات ،
يصل نجيب محفوظ عن طريق تصرفات كمال وياسين ، الى تقرير واقعية الحياة بأمسها المولسي ،
وغدّها الواعد . " يخرج الأخوان من البيت ، وعلى غير عادته ، لا يذهب ياسين الى القهوة ،
بل يسير مع اخيه كمال لشراء جهاز لحفيدة ، بينما يشتري كمال رباط عنق اسود ، اذ ان الرباط
الذي استعمله عاما حداثا على والده ، قد استهلك ، ويلزمه آخر جديد ليواجه به اليوم الحزين " (٤)

-
- | | | | |
|-----|----------------|---|-------|
| (١) | السمان والخريف | - | ص ١٢٠ |
| (٢) | السكّريه | - | ص ١٢٦ |
| (٣) | السكّريه | - | ص ٣٨٩ |
| (٤) | السكّريه | - | ص ٣٩٥ |

وفي " السراب " ، يأخذ موت الأم ، صفة الفجعة ، وما يترتب عليها من تغيير أساسي في النفسية والتصرف ، كالمرض ، والهروب ، ونية التصوف الروحي والجسدي .

إذا ان موتها ، يمثل ذروة المأساة في حياة ولدها كامل رؤبه ، الذي لم يستطع أن ينتزع نفسه من حضنها حتى وهو في حزن زوجه .

كانت كل شيء في حياته ، وكان كل شيء في حياتها ، ولما فجع الولد بخيانه زوجه ، وموتها ، عاد الى امه منكسرا ، وصارحها بأنها شامتة به - وكانت ترقد في فراشها من نوبة قلبية - أصابتها اثر شجارها مع كنفها - وبلغها انه سيرحل ، ولن يعيش معها تحت سقف واحد ، ولتعتبره من الأموات .

وتنتحب الأم وتنام ، بينما يخرج الولد الى الشارع وينام في المقهى ، حتى ما بعد الظهر ، فيلتقيه زميل له ويعزيه ، وهو لا يدري انه يعزيه بأمه ، وحين يقرئه النعي في الجريدة ، يعتبر الخبر كذبا ، وعبثا سخيفا ، اراد احدهم ان يداعبه به " حملقت في وجه صاحبي كالمجنون ، ثم اعدت تلاوة النعي وجميع جسي ينتفض ، وصرخت بلا وعي هذا محال . . . هذا كذب . " (١)

ويذهب الى البيت ويرى سراق المأم بعينه ، فيجن " لم اكن حزينا او متألما ، وانما كنت مجنونا " (٢) فقد اعتبر نفسه قاتل امه ، لانه خيل اليه انه سمعها قبل مخادرتة المنزل فسي الصباح الباكر ، ولم يلب نداءها ، فتصيبه الحمى ، ويقع مغميا عليه ، ويظل ثلاثة ايام في غيبوبة ، تتخللها احلام مزعجة ، وحين يستيقظ يرى اخته واخاه بجانبه ، ويهتف متألما " قضى الله بالاشيع لا ابي ولا زوجي الى مرقد هما الاخير " (٣)

وبموت امه ، يحس كامل بأن الحياة موحشة ، كالموت ، ويشعر بفراغ مخيف ، خلا البيت ، وخلت حياته ، وخلت الدنيا جميعا . وكان في حياتها يجد طمأنينة راسخة ، ويشعر في اعماق

(١) السراب - ص ٣٥٨
(٢) = - ص ٣٥٩
(٣) = - ص ٣٦٤

قلبه ، بأنه مهما نكدت الدنيا ، فله فيها حجرة دائمة الاشرار بالابتسام والحنان .

ويقرر ان يهرب من واقعه ووحدته ، بالتصوف جسدا وروحا .

* وفي " الطريق " يؤذن موت الأم ، ببداية حياة جديدة للولد ، حياة لم يهيا لها ، ولم يألفها ، وليست طبيعية في أى حال ، فقد كانت امه قواده ، وابتعدته عن حياتها في مدرسه داخلية ، وتكفلت بكل مصاريفه ، ففرغ هولا متاع شبابه اليافع ، لكنها وهي تحتضربعد خروجها من السجن ، تعترف بأن " له ابا حيا ، وانه يجب ان يذهب اليه ، والا اضطر للعمل برمجيا او بلطجيا او قوادا " .

- " لعله قد مات ..

- ولعله حي

- وهل اضيع عمرى في البحث عن شيء ، قبل التأكد من وجوده ؟؟

- ولكنك لن تتأكد من وجوده الا بالبحث ، وهو خير على أى حال من بقاءك بلا

مال ولا عمل ولا امل . " (١)

تعطيه امه صورة زفافها من ابيه ، ووثيقة الزواج وفيها اسمه ، وتخبره انها هربت منه منذ ثلاثين سنة وهي حامل . وربما كان الأب الآن في الاسكندرية ، او القاهرة ، أو أى مدينة مصرية اخرى .

وفي المقبرة يهم بالأنحاء فوق القبر وهو مغرورق العينين ، برغم تجلده امام الرجال (الخنازير) الذين اتوا يعزونه ، لكنهم في الواقع يدارون شماتهم به .

ويلخص حالته النفسية ، حين عودته للبيت : " في شقة الجيران موسيقى ومدعوون ، وفي بيته القرآن يتلى في غرفة المرحومة ، اين هي الحقيقة واين هو الحلم ؟ امك التي ما تزال

نبرتها تتردد في اذنك قد ماتت ، وابوك الميت يبعث في الحياة ، وانت المفلس المطارد بمساح
ملوث بالدعارة والجريمة ، تتطلع بمعجزة الى الكرامة والحرية والسلام " . (١)

ويبدأ حياته الجديدة ، يبيع عفشه ، ويقرر الانتقال للقاهرة للبحث عن ابيه ، ويضع اعلانا في
الجريدة ، متوقعا ان يتصل به سيد سيد الرحيمي . . . ولكن عبثا ، وتمضي حياته يوما بعد يوم
في الانتظار ، " لو انشأتك امك نشأة مناسبة ، لكنت اليم قوادا سعيدا ، لكنها صانتك في
النبي دانيال ، لتتعذب ابد الدهر ، ثم احيت اباك ، لتحرمك نعمة اليأس " . (٢)

وتدخل حياته في القاهرة امرأتان : كريمه ، زوجة صاحب الفندق ، وهي امتداد حي لأمه
فيما تمه به من متعة ، وفيما تورطه من جريمة . والهام ، الصحافيه ، تجسّد لآثيه فيما تعدّه ، وفي
انها حلم عسير التحقيق .

(١) الطريق - ص ١٨

(٢) - - ص ٩٠

٣ - موت الأولاد :

- أ - اسبابه .
- ب - آثاره النفسية والاجتماعية .

١ - الأسباب :

- ١ - الاغتيال السياسي : فهمي عبد الجواد في رواية " بين القصرين " ، يقتل في احدى المظاهرات السياسية ، اثناء ثورة سنة ١٩١٩ .
- ٢ - الموت بالسل : رشدي عاكف في رواية " خان الخليلي " ، يموت بالسل ، لأنه لم يتبع ارشادات الطبيب ، بالانتقال الى المصحى ، خوفا من الفضيحة الاجتماعية ، ومن فقد الوظيفة .
- ٣ - الموت بالتيفويد . : ولدا عائشة شوكت ، الحدثان ، يموتان مع والدهما بالتيفويد ، في رواية " قصر الشوق " .
- ٤ - الموت اثناء الولادة : نعيمه ، ابنة عائشة ، المصابة بقلبها منذ ولادتها ، تموت في رواية " السكرية " ، وهي تضع مولودها البكر .

ب - الاثر النفسي والاجتماعي :

اغتيال "فهمي عبد الجواد" في مظاهرة سياسية ، وتبلغ الوالد موته من رفاقه الشباب ، وكان رد فعله الأول ، عدم التصديق ، " كيف اصدق ان فهمي مات حقا ، فهمي الذي تركنا هذا الصباح ممثلنا صحة وعافية واملا وسرورا ، مات ٠٠ مات !! لن اراه بعد اليم لا في البيت ولا في أى مكان من ظهر الأرض ، كيف يكون البيت من دونه ؟ كيف اكون انا بعده " ؟؟

ان الأب الجبار ، البطاش ، يقف امام الموت متألما ذليلا ، لم يعد ثمة امل الا في الصبر . . آه هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا . . كنت تخدع احيانا ، فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليم ، هذا هو الألم حقا .

وتخونه قدماه وهويهم بدخول بيته ، وهو الذي كان يدخل بيته ، فتخون الجميع اقدامهم ، لرهبته وسلطوته ، ويقف امام البيت حائرا " أأمر بمنع الصوات كما امرت بمنع الزغاريد من قبل ؟ ام تصوت بنفسك ؟ ام تدعو النائحات " . (١)

أما الأم - ولتقيها في رواية قصر الشوق ، وقد مضى على شكلها خمس سنوات - فقد زادها موت ولدها سلبية ، فهي تلوم نفسها ، انها تعيش بعده ، " ثمة ما هو افظع من النسيان ، هو تمتعك بالحياة ، وحرصك عليها " . (٢) وتمثل هذا الحرص ، في تعلقها بكمال - ابنها الثاني - الى حد ضايقه ، واستفزه للذود عن حريته وكرامته .

والحق الانساني الوحيد ، الذي حصلت عليه ، هو حق الغضب ، وزيارة القرافة والسكّريه .

(١) بين القصرين - ص ٥٧٥ - ٥٧٧

(٢) قصر الشوق - ص ١٨٢

وبالنسبة لكمال ، فان " مقتل فهمي " ودخول الموت الى عالمه ، وموقف ابويه من فهمي واستشهاده ، كانت من الحوامل التي كوّنت شخصيته المتألمة المتشككة . كثيرا ما تسأل عن حقيقة امرهم ، أهم " متهورون " كما تزعم امه ، ام هم ابطال فدائيون كما يقول فهمي ؟ ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنقش عناصره الجوهريه في نفس كمال بلا وعي او قصد فتغدوا اسما ، سعد زغلول ، الانجليز ، الطلبة الشهداء ، المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثره الموحيه في اعماقه . (١)

لذلك أصبح كمال وفديا عقائديا ، فقد تلقى الوفديه عن فهمي ، واقتربت في قلبه ، باستشهاده وتضحيته ، وربما أثرت تضحية فهمي في حياته ، بتضحيته هو في حبه " فهمي ضحى بحياة واعده في سبيل مية رائعة ، وحيي هو شهادة للدينيا ضد المتشائمين من خصومها ، علمني ان الموت ليس افظع ما نخاف ، وان الحياة ليست ابهج ما نبتغي ، وان من الحياة ما يغلظ ويفسر حتى يلتمس الموت ، ومنها ما يرق ويثري ، حتى يهفو الى الخلود . " (٢)

وفي رواية " خان الخليلي " ، ينزل موت الولد الشاب بالعائلة ، الحزن والالام ، وبناء على رغبة الام الثكلى ، تقرر العائلة ان ترحل عن الحي : هذا حي شؤم ، جئته على كره مني ، ومما أحببته قط ، وفيه مرض ابني ، وفيه قضى ، فدعنا نهجره بخير أسف . " (٣)

والواقع ، ان الاب ، قد ران يداوى جرحه بالايمان ، أما الام ، فقد ذهلت في حزنه — عن كل شيء حتى الايمان . وكانت تخاطب ربها " ما ضر دنياك لو تركت لي ابني " ، وأصرت على ترك الحي ، الذي كانت العائلة قد لجأت اليه ، هربا من الغارات الجوية التي كانت تقصف مصر ، أبان الحرب العالمية الثانية .

(١) شكرى ، غالي — المنتهي — ص ٢٢

(٢) قصر الشقوق — ص ١٨٦

(٣) خان الخليلي — ص ٢٦١

وبكثير من الجهد والعناء ، يجد احمد شقة خالية بحي الزيتون ، تنتقل اليها العائلة ،
ومعها احزانها ، وكآبتها .

وفي رأى غالي شكرى : " ان احمد - الاخ الكهل - قد ذهب ضحية رشدى ، الذى
وأد - من حيث المظهر - أمل اخيه . فرشدى احب ، وخطب الفتاة التي احبها الكهل ،
ثم مات دونها ، فأصبحت محرمه عليه ، وبموت رشدى ، بات احمد هو المعيل الوحيد لوالديه ،
وغدت الدرجة السابعة ، هي آماله ومبتغاه ، وتحول احمد الى كتلة من الماضي " " من الجذور " ،
" من الزمن " ، ومات معنوياً . (١)

حتى أخبار الحرب والغزو المرتقب لمصر على يد رومل ، وما يمكن ان يحدثه الغزو من
خراب ودمار ، لم تحرك عند احمد عاكف ، غير شعور بلذة خفية عكستها اعصابه المتوترة ،
كأن " ذاك الغزو المرتقب سيبيد فيما يبيد ، احزانه وآلامه ، وسيمحو فيما يمحو من آثار الماضي ،
آثار ماضيه .

وفي " الثلاثية " ، يختار نجيب محفوظ ، واحدة من امح افراد العائلة ، وأكثرهم حباً
للحياة ، ليجعلها هدفاً للترمل والشكل ، كأنه يريد بذلك ، ان يدلل ، على عبث الأقدار . فلقد
عاشت عائشة مع اسرتها ، حياة سعيدة رغيدة ، كأنما الحياة ^{كانت} لهموا خالصة ، هي غاوية غناء ، وابنتها
نعيمه غاوية رقص ، ويشاركهما لهوهما ، زوج محب ، وولدان قرت بهما الاعين .

ويمرض الزوج والولدان بالتيفوئيد ، ويقرر الأطباء ان لا أمل لهم ، ويقف كمال - صوت العقل
المتفلسف - متأملاً اسباب الموت " كما اختطف الانكليز حياة فهمي ، فان " التيفوئيد سيختطف حياة
هذه العائلة ، الانكليز او التيفوئيد سيان ، او غير ذلك من الأسباب . " (٢)

(١) شكرى ، غالي - المنتهى - ص ١٣٠ و ١٣١

(٢) قصر الشوق - ص ٤٦٢

ونلقى عائشة ، في رواية " السكريه " ، بعد ثماني سنوات من فقد زوجها ، وولديها ، وكانت قد اصبحت في الرابعة والثلاثين . نلقاها امرأة مؤليه ، اصابها تدهور وانحلال ، شحبت بشرتها ، وتأت عظام وجهها ، وغارت عيناها ووجنتاها .

رجعت عائشة ، لتعيش في بيت ابيها ، ولتكسر تقاليد البيت الصام ، والواقع ان الموت ، قد كسر تلك التقاليد ، فبعد ان كان التدخين رجسا من عمل الشيطان ، اصبحت بوسع عائشة ان تدخن علنا ، واصبح بوسعها ان تنقطع عن عمل البيت ، منصرفه الى القعود ، وحسو القهوة ، والتدخين . كذلك منعت ابنتها نعيمة ، ان تعمل بتقاليد البيت ، فتلتم بواجبات ست البيت " ان ابنتي لن تتحمل أى جهد فدعيها وشأنها ، لم يعد لي من امل في الدنيا سواها . " (١) والواقع ان عائشة احبت كل شيء يصدر عن وحيدتها : تدينها ، وصوتها ، والتصاق الفتاة بها الخارق للحد ، ولم تطق ان تسمع عنها اية ملاحظة ، بل انها كانت تضيق بالنقد عامة .

واصبحت ام فهمي - بعد ان كانت السيدة المطاعة التي لا يرد لها طلب - معتادة أن تتحمل ما قد ينم عن ابنتها الثكلى من جفاء في الرد ، او قسوة في الملاحظة ، بصدر رحب ، وعطف سمح ، وتغيّرت معاملة خديجة لاختها عائشة تغيّرا كلياً ، فلم تبدر منها طوال ثمانين سنة اعوام ، كلمة واحدة تنم عن سخرية ، او خشونة ، خشوعا حيال تعاستها ، وخوفا من الاقذار التي قضت بما قضت ، واشفاقا من ان تضع المرأة المحزونة حظيهما موضع المقارنة .

والوحيد الذي كان يتجرأ على ان ينصح عائشة بالتقليل من التدخين والقهوه ، هو ياسين ، باعتباره مثلها ، فقد وليدا ، وكان هذا الفقدان ، السبب في مصالحة اهله لزوج ، العواده زنوبه .

كانت العائلة ، تراعيها في المشاعر والتصرفات ، وتولي حالتها النفسية جل الاهتمام ، وقد بلغ من تعاطف اختها خديجة معها ، انها حثمت على ابراهيم شوكت ، وزوجها ، ان ينزل عن حقه المشروع في ميراث اخيه المتوفي ، لنعيمه ، فأل الميراث كله لعائشة ، وابنتها . (١)

وبمرور الزمن ، بدأ التغيير واضحا ، في تفكير وتصرف الأب الصام ، السيد احمد عبد الجواد ، الذي قبل ان يزوج حفيده عبد المنعم ، التلميذ ابن الثامنة عشره ، إلى حفيدته نعيمه ، لأنه اعتبر زواج نعيمه ، سببا يخفف من لوعة قلب امها ، سمح السيد للصبيان ، في هذا الظرف ، ان يملوا ارادتهم على الكبار ، وان يتزوجوا قبل ان يتجاوزوا مرحلة التلمذة ، وهو الذي رفض فكرة اعلان خطبة ولده ، فهمي ، الذي مات قبل ان يجني ثمرة شبابه الغض .

وأحس السيد ، بأن العالم قد انقلب على رأسه ، وان " دنيا اخرى عجيبة تشبه " انسا غرباء بين أهلينا " (٢)

وتتزوج نعيمة ، وهي دون العشرين ، وابن عمها ، وابن خالتها ، وتذهب إلى السكّريه . ويفتح باب السكّريه امام امها ، عائشة ، التي ظلت تتحاشاها . كان يمكن ان تتغير حياة عائشة بزواج نعيمه ، وما يمثل هذا الزواج من خصب واستمرار ، لا سيما وان نعيمه حملت ، ومجسي ، الأحفاد ، يعوّض عن خسارة الأولاد ، عاطفيا ، وعمليا ، إلا ان ما كان يخشاه الجد المتأمل برحمة الله ، العارف بأن نعيمة ولدت ذات قلب ضعيف ، وانها لن يمتد بها العمر ، في رأى الطب ، إلى ما بعد العشرين ، قد حصل : ماتت نعيمه اثناء الطلق .

(١) السكّريه - ص ٢٨

(٢) - ص ١٤٤

وكان موتها كارثة ، ضجت الحجرة بالصوات ، ولطمت خديجة - حمايتها وخالتها - خديها ،
وتشهدت جدتها امينه في وجهها . أما عائشة ، فرمت بناظرها من النافذة المظلة على السكّريه ،
وتردد صوتها كالحشرة . " ما هذا يا ربي ؟ ما هذا الذى تفعله ، لماذا ؟ لماذا ؟ اريد
ان افهم " . (١) وطلبت من الجميع ان يخرجوا من الغرفة ، لأنه لن ينفعها الكلام . وكانت
نعيمه ، كل ما تبقى لها ، فلم يبق لها شيء في الدنيا .

ويرد الجميع الى واقع الحياة ، ايمانهم بقضاء الله الذى لا بد منه ، الا الأم ، التي انقطعت
عن الدنيا ، وعن الناس ، ولزمت البيت بالأسود " لا استطيع ان ارى السكّريه ، ولا معارف لي ،
لم يعد لي معارف ، لا اطيق زيارة احد " (٢)

وأدمنت شرب القهوة والسجائر ، ولم تعد تأكل الا لقمات . . انقلبت هيكلها عظميا كسي
جلدا باهتا ، واخذ شعرها في السقوط ، وتكالبت عليها العلل ، حتى اشار عليها الطبيب بالتخلص
من اسنانها .

وكانت زيارة القرافه ، هي التقليد الوحيد الذى لم تشذ عنه مرة ، كانت تنفق فيها بسخاء ،
وتهبها عن طيب خاطر كل ما ملكت يمينها ، من ميراث زوجها وابنتها ، حتى استحال حوش المقبره ،
حديقة غناء ، موشاة بالأزهار والرياحين .

وبازدهار المقبره ، اتخذ البيت القديم مع الزمن ، صورة جديدة تنذر بالانحلال والتدهور ،
انفرط نظامه ، وتقوض مجلسه .

ووصلت المأساة ذروتها في حياة عائشة ، عندما ورثت عن ابنتها " فضحكت ضحكات جنونيه ،
 واصبحت كمن اصابها مس من الجنون ، ولم تزل توغل في دنيا خاصة خلقتها لنفسها ، هي دنيا

(١) السكّريه - ص ١٨٨

(٢) = - ص ٢٠٤

الوحده ، والتصقت بها عادة جديدة ، هي محادثة نفسها ، خاصة حين انفرادها ، ولكنها
كانت تخاطب اصواتا لا اشباحا ، وفي ذلك عزاء المحيطين بها . " (١)

٤ - موت الحبيب :

أثره النفسي والاجتماعي :

تندر في مجتمع نجيب محفوظ ، حوادث الحب الرومانطيسي ، واذا ظهرت بعض ملامح له ، فلعجز ونقص في شخصية المحب ، قاسى منهما في مختلف نواحي حياته ، فهو يحب ، ولا يستطيع ان يحصل على محبوبته (كمال عبد الجواد) ، واذا حصل عليها ، لا يستطيع الاحتفاظ بها (كامل رؤبه) .

يعرف كمال ، بعد ستة عشر عاما من فراقه لحبيبته اثر زواجها ، مصادفة ، ان عايدته قد ماتت منذ عام . فيشعر بدوامه الفناء في رأسه ، وتصيبه دهشة ، وارتياح ، ويتمتع عاجزا " اني حزين يا عايدته لانني لم احزن عليك كما كان يجدر بي . " (١)

ويلجأ في عجزه الى الاموات ، الى اخيه ، وأبيه ، وبنت اخته ، متسائلا : هل يمكن ان يعرفوها ؟ وهو الذي مشى في جنازتها ، وهو لا يدري من هي . كان يقوم بواجبه ، كمدرس ، تجاه المفتش - زوجها الثاني - وكان نعشها ملفوفا بالحرير الأبيض ، حتى تهامس بعض زملائه . انها عروس ! وقد ماتت بذات الرئة .

وفيلسف الكاتب ، موقف كمال العاجز ، بأنه نتيجة لمرور الزمن " لو وقعت هذه الوفاة عام ١٩٢٦ لجن او انتحر ، اليوم تمر به كخبر من الاخبار " . (٢)

ولكن كمال لم يجن ، ولم ينتحر ، امام ضياع الحبيبته بالزواج ، وحين لاح له فرصة اخرى بالحب والزواج من بدور ، اخت عايدة ، أضاع الفرصة .

(١) السَّيَّار - ص ٣٧٤

(٢) - - - - - ص ٣٧٠

ذلك أنّ كمال ، اضاع عايده ، لانه كان يمثل في مطلع حياته - كما يقول غالي شكرى -
 "الجيل الجديد من ابناء البرجوازية الصغيرة المثقفين ، الذى يتخذ من التسامي سلما يعلو به
 على طبقته ، والفكر ، والحب الرومانسي ، هما الجناحان اللذان يحلق بهما عاليا فوق المجتمع ،
 بطبقته ومشكلاته ، هما الجناحان اللذان يصلان به الى مستوى " الحب " المطلق والفكر
 المطلق " (١) . لذلك حلّ الفكر محل المهام ، فاستغرق حياته بنهم ، وغدت فرحة الأفراح
 ان يعثر على كتاب جميل ، او يظفر بنشر مقاله .

وحين لاحت له بدور ، وكانت قد نزلت من عليا طبقتها الاجتماعية ، بخسران الأسرة كافة
 املاكها ، واصبحت توازيه اجتماعيا ، ظل جامدا في خطواته لا يتقدم برغم ملاءمتها له ، وقال
 لنفسه : ان المفكر لا يتزوج وما ينبغي له ، فلقد كان كمال ينظر الى فوق ، ويظن انّ الزواج
 سيحمله الى النظر الى تحت . " كان - وما يزال - يلذ له موقف المشاهد المتأمل بقدر ما
 ينفر من الاندماج في آلية الحياة ، وانه ليضن بحريته كما يضمن البخل بماله ، والى هذا كله
 فالشباب لم يضع هباء ما دام لا ينقضي اسبوع دون مسرات فكرية ، ولذات جسديه . ثم انه
 حائر ، يداخله الشك في كل شيء ، والزواج نوع من الايمان ، كان يؤمن في اعماقه بأنّ الزواج
 قبه لا حبه ، وكان يساوره شعور غريب بأنه يم يدعن للزواج ، فسيقضي عليه قضاء مبرما " (٢)

واكتفى كمال ، عندما علم بموت الحبيبه ، بأن يردد " سوف يمضي وقت طويل قبل ان يسكن
 جيشان هذا الصدر ، لا من الحزن والالام ، ولكن من الذهول والدهشة ، ومن خلو العالم من
 مباهج الأحلام ، ومن ضياع سر الماضي الساحر الى الأبد " (٣)

(١) شكرى ، غالي - المنتهى - ص ٣١

(٢) - - - - - ص ٥٦

(٣) السـكـرـيـه - ص ٣٧١

في رواية " أولاد حارتنا " ، تموت الزوجة الحبيبة بمرض ، ظلت تخفي آلامه عن زوجها الذي يصغرها كثيرا ، لأنه كان منشغلا برسالته في الحي . وهي تخجل ان تثقل عليه ، حتى لا تعين أعداءه ، بغير قصد عليه .

قاسم - الزوج - ودّ لو يفتديها من الموت ، وساعة دفنها ، بكت جميع حواسه وجوارحه - إلا عينيه ، وتمنى في وحدته وألمه ، ان تكون ابنته كأمها طيبة وحنانا ، " وعزاه وجودها لتظل رمزا باقيا للعلاقة المحبوبة التي مزّقاها الدهر " (١)

وتكون نتيجة وفاة الزوجة ، ان يترك الزوج الحي هربا من خصومه ، وكانوا يرهبونه ، بسبب نفوذ زوجته ، الأرستقراطي ، الثرية .

ولم يطل الوقت بالزوج حتى تزوج بعدها ..

الموت يحزن الشباب ، لكنه لا يضطرم لقبول حياة لا يرتضونها ، في حين يهزم الموت الشيخ . وفي أقصوصة " القهوة الخالية " ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، يضطر ابن - التسعين ، الذي فقد زوجته ، ان ينتقل للعيش مع ولده ، وكنته ، وحفيده ، فيفقد الكثير من حريته ، وسيادته . ويقاسي من حفيده الشرس ، مرارة بالغة ، ومع ذلك يصبر ، لأنه لا بد من العيش مع احد اولاده ، بعد وفاة الزوجة الرفيقة ، والصديقة ، والمساعدة .

وينسب نجيب محفوظ ، هذا الموقف التعس ، للزمن ، " فالزمن بالنسبة للفرد هادم لذاته ، ومفني شبابه ، وصحته ، وهو القاضي على اصدقائه واحبائه " . (٢)

أما كامل رؤبه ، الجبان ، الخجول ، الضعيف ، الذي اقنعت زوجته الحبيبة ، ان تظل العلاقة بينهما علاقة براء ، والذي ظل " مؤمنا بطهر زوجته ، وبراءتها ، برغم انه ضبط معها رسالة رفضت ان تقرأها ، ومزقتها . هذا الإنسان الجبان ، انقلب الى ثائر على نفسه امام

(١) أولاد حارتنا - ص ٣٩٢ (وقاسم طبعا هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وزوجته هي خديجة)

(٢) شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد ٦ - حزيران ، سنة ١٩٦٠ - ص ١٩

الموت ، وشك في سبب الموت ، فقرر ان يستدعي وكيل النيابة ، والطبيب الشرعي ، بعد ان اجتاحت ثورة عارمة تتحدى قوة الموت نفسه ، وبطش القضاء . أبى ان يصدق عينيه ، واستعصى عليه الاقتناع ، فلم يقتنع بادعاء الطبيب ان البروتون ثقب معه لسبب خارج عن ارادته - وهو قد تركها مريضة بالانفلونزا - " لن يهدأ خاطري حتى اعمل عملاً ترجى له القلوب ، لقد تمخض خضوع العمر في " ، عن ثورة جامحة ، وغضب نارى ، وشر مستطير ، نسيت الجثة والحزن ، وتخيلت الشياطين لعيني ، لتنفّض الدواهي على رؤوس المجرمين . " (١)

ولكنه حين يكتشف ان " المجرم " ، لم تكن سوى زوجته ، وأن العملية كانت عملية اجهاض ، تنازعت احاسيس متضاربة ، شطرته شطرين ، استحال قلبه بعد ان ترك بيت من كانت زوجته ، الى جمرة من نار ، يتطاير عنها شر الغضب ، والشقاء ، والمقت . ولكن كيف هان عليه ان يرسلها الى القبر مكفنه بالفضيحة ، ألم يكن الاخلق به ، ان ينتهز الفرصة المبدولة ، فينقذ نفسه ، ويستبرشرف المرأة التي احبها واحبته .

وتظل الاحاسيس تصطرع في نفسه ، الى ان يتورم قلبه من الحقد والغضب ، ويجد في المصير الذى قضى على زوجته وعشيقها به - هي في القبر ، وغريمه في السجن - راحة وغبطة . ويعود الى بيته بعد ان سكر ، فتقابل به امه المريضة بالقلب ، والتي تشاجرت مع زوجته قبل وفاتها ، تقابله بالتعزية :

- " ليتني كنت فداءها .. كان ينبغي ان تبقى هي لك ..
- كذب ؟! محال ان يرضى انسان بأن يفتدى آخر من الموت .. أكنت تقولين هذا لو كانت ما تزال على قيد الحياة " . (٢)

(١) السراب - ص ٢٢٩

(٢) = - ص ٣٥٣

وينفجر غضبه في امه التي كانت كل حياته ، ويحنق عليها ، كما لو كانت السبب فيما حلّ من كارثة ، ويزيد من حنقه ، ما وقع في نفسه من انها تدارى بهذا الحزن ، فرحاً ، وشماته . ويخبرها انها قتلت اثناً اجهاضها ، وانه ليس والد الطفل . .

— " كامل . . رحمة بنفسك ، رحمة بي ، انت لا تدرى ماذا تقول ؟
— بل ادرى اكثر مما تتوقعين ، لقد عرفت في يوم ما لا يعرفه مثلي في جيل ،
قلت لك انها اخفت الامر عليّ وذهبت الى والد الجنين ليجهضها فأخطأ وقتلها .

— اللهم لطفك يا ارحم الراحمين .
— الا يزال ارحم الراحمين ؟ وداعا فلن اعبدك بعد اليوم . " (١)

الله ، واه ، الملجأ الوحيد له في حياته ، مرفأ الراحة والصبر والسلوان ، كفر بهما في ثورته ، لقد نقلته حالة الموت والخيانة ، من النقيض الى النقيض . لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً ، ولما عاد اليه هدوءه ، عاد اليه جنبه ، واستسلامه ، وهروبه " لشد ما تعاودني تلك الرغبة القديمة في الهرب . . اين مني بلد بعيد لم يطرق ابوابه طارق ، من لي بأن اقطع كل صلة تربطني بماضي البغيض ؟ آه لو يمكنني ان اولد من جديد ، في عالم جديد ، لا تطالعني فيه ذكرى من ذكريات هذا العالم . اجل لن استطيع ان اواصل حياتي ، على حين يتبعني هذا الماضي كالظل الثقيل . " (٢)

وأما العالم الذي رغب فيه ، فهو عالم التصفّ " حيث يستحم جسدى بماء عطر ، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد ارنوا اليه الا السماء ، ولا خاطر ينبثق في نفسي الا الله . " (٣)

(١) السراب — ص ٣٥٤

(٢) — ص ٣٤٩

(٣) — ص ٣٦٦

٥ — الانتفاع من الموت :

فيما عدا حالات الوراثة ، يجد بعض افراد المجتمع في الموت ، بابا للرزق ، حللا أو حراما : التري ومساعدته ، والسقاء ، والعميان المرتلون ، يعيشون كلهم من الموت ، والموت بالنسبة لهم أكل عيش ، " بعد ان خرج التري ومساعدته من الفوهة الترابيه ، اقبلا يسدان القبر ، ثم يسويان الأرض في نشاط وحيويه . ونادى السقاء على الماء ، ورتل العميان ، ثم ردد رئيسهم التلقين ، وتقدم التري منه خطوات ، عند ذاك قال الواقف الى يمينه " دعه لي فلا تحاسبه ، اني ادرى بهؤلاء الناس . (١)

تجار يسامون ، وينتفعون من الموت بالحلال . وهناك سارقو القبور ، ضحايا الفقر ، الذين يغزون الأموات ، ذوى الأسنان الذهبية ، فيستولون على اسنانهم . وفي رواية — " زقاق المدق " ، نتعرف على صانع العاهات ، ودكتور الأسنان ، اللذين يتوجهان الى المقبرة ليسرقا اسنان الميت الذهبية ، ومع ان هذه المخاطرة ، لم تكن الأولى من نوعها ، الا ان فؤاد الدكتور كان خافقا ، وريقه جافا ، واعصابه متوترة ، في حين جلس زيطه جامدا ، رابسط الجأش ، لا يبالي شيئا . كان الدكتور يدخل القبور على كره ، ولطالما ناشد زيطه ان يعفيه من دخول القبر ، لكن الآخر أبى ان يؤدى له هذه الخدمة ، الا اذا شارك في جميع خطواتها ، مستلذا في اعماقه ، تعذيبه . ويقبض عليهما ، ويشيع خبرهما بين اهل الزقاق ، فيقابل بالدهشة والآنزعاج ، وتصاب سنيه ، العروس العجوز ، بالاعماء ، بعد ان ركب لهما الدكتور طقما ذهبيا . (٢)

وكما ينتفع افراد المجتمع من الموت ماديا ، ينتفع البعض الآخر في ازالة غمه عن القلب ، والتخلص من هاجس حالة نفسه . وفي اقصوصة " صور " من مجموعة " خمارة القط الأسود " ،

(١) الطريق — ص ٦

(٢) زقاق المدق — ص ٢٤٣ و ٢٤٥

تحسّ الزوجة بما يشبه طعم الارتياح - لولا رهبة الموت - وهي تطالع صورة خادماتها ، التي طردتها منذ خمس سنوات ، في الجريدة ، قتيلا • ونفهم من حوارها مع بنتها ، سبب طردها ، ومن ثمّ ارتياحها لغيابها الدائم :

- " مسكينة كنت احبها ، وبابا لم يرغب ابدا في طردها ••

وقطبت الأم عند ذكر " بابا " وغامت عيناها بذكريات مقلقه ، فيما بدا ، وقالت بصوت جاف ••

- كفى ، الله يرحمها وكفى •• (١)

وبرغم الاضطراب الذي اعتري السيد أنور حامد ، إلا أن صورة الفتاة القليل ، تعيد الطمأنينة ، والراحة اليه • وكان الرجل قد اغتصبها وهي عذراء ، ثم اضطر حين حملت ، أن يتزوج منها زواجا عرفيا ، الى أن نجح في اجهاضها وطردها • ظهرت صورتها وهو شارع في الزواج ، فكان ذلك إيذانا بنهاية متاعبه ، وبظهوره بمظهر الرجل النظيف امام الناس والأهل • (٢)

(١) خمارة القط الأسود - ص ٢٣٥

(٢) - - - - - ص ٢٣٧

الفصل الثاني

الموت في نطاق المجتمع والعلاقات العامة

- ١ - القتل الانتقامي
- ٢ - القتل الإجرامي
- ٣ - شهداء وضحايا
- ٤ - موت العاشق الشاب
- ٥ - الموت بحادث
- ٦ - موت الزعيم
- ٧ - الانتحار

لما كان أدب نجيب محفوظ ، يعبر عن مرحلة تفسخ البرجوازية وانهيارها ، وينقــد
هذه الطبقة بمنتهى المرارة ، ويكشف القناع عن وجهها الدامي ، عن انانيتها ، وجشعها ، ولا
اخلاقيتها ، فإنه من المنطقي ، ان يكون لمثل هذه الطبقة ضحايا ، وضحاياها هم أبناء
الطبقة المتوسطة الصغيرة ، الذين يصارعون للتسلق ، وغالبا ما ييؤ هذا التسلق بالـأخفاق ،
والأخفاق غالبا ما تكون نهايته الموت .

ثم ان نجيب محفوظ ، يكتب عن مرحلة النضال الدامي من اجل الحرية والاستقلال ،
عن مرحلة وجود محتل على ارض مصر ، متأمر مع الاقطاع والرجعية ، مستبج لنفسه ان يستثمر
كل طيبات مصر : " اللحم والفاكهة والنساء " (١) ولمقاومة هذه القوة الطاغية ، لا بد
من وجود ضحايا .

ضحايا يموتون بدافع الانتقام ، بدافع الأجرام ، بدافع التقاليد ، بدافع قمع
المظاهرات ، بحوادث السيارات ، وضحايا ينتحرون ..

(١) خان الخليلي - ص ١١٥

١ — القتل الانتقامي :

أسبابه ونتائجـه :

للقتل الانتقامي اسباب ، ينبع بعضها من تركيب المجتمع الطبقي ، وفجعية أفراد بنماذج منه ، يتخلون عن كل ما هو شريف وتلطيف في هذا العالم • وينبع بعضها من تقاليد هذا المجتمع ، في العيب ، والشماتة ، والحرام ، والثأر • وينبع بعضها الآخر ، من حدة الطباع ، كرفض المزاح الثقيل مثلا ، أو الغيرة •

في رواية " اللص والكلاب " ، يواجهنا نجيب محفوظ دفعة واحدة ، بسعيد مهران ، وهو في قمة ازمته ، بعد ان فقد اربعة اعوام من عمره غدرا ، وفقد زوجته ، وكتبه ، وانكرته ابنته ، واحتقره وطرده مشجعه الأول على السرقة ، الذي اصبح صحافيا لامعا • ثم يسير بنا معه ، ليؤكد هذه الازمة طولا ، وعرضا ، وعمقا ، حتى يصبح سعيد مهران ، وثيقة احتجاج صارخة ضد الظلم ، والضياع ، والخيانة •

هو ضد عlish ، صديقه ، الذي داس على الصداقه ، والأمانة ، والأخوة ، في سبيل الحصول على منصب سعيد ، وزوجته ، وهو لذلك يريد ان يقتله •

وهو ضد نبويه ، زوجته وحبيته ، التي داس على الحب ، والأبنة ، والزوج ، تحقيقا لنزواتها ، وارضاء لنوازع الخيانة الخبيثة ، التي ركبت في اعماقها •

وهو مع رغبته في قتلها ، يبقي على حياتها ، من اجل ابنته : " بفضل سناء وهبتك الحياة ، لكنني احطت بك بعقاب اشد من الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعر الأبدى • " (١)

وهو ضد رؤوف علوان ، مثله الأعلى ، الذى داس على مبادئه ، في سبيل صعوده السلم ، منحرفا بذلك عن جوهره ، بعد خروجه من المعتقل .

وهو لذلك ، يريد ان يقتله ، " لأنه رمز الخيانة التي ينضوى تحتها عlish ، ونبويه ، وجميع الخونة في الأرض . . والرصاص التي تقتل رؤوف علوان ، تقتل في الوقت نفسه ، العيب ، والدنيا بلا اخلاق ، ككون بلا جاذبية . . (١)

وفي رأى صبرى حافظ ، " أن " مأساة سعيد مهران الحقيقية ، هي انه بقي وحده في عالم الضياع ، برغم تأييد الملايين له ، لقد ناضل ولم يستسلم ، فكان الصراع بين الأنسـان النظيف ، الذى لا يجد حتى قطرة هواء نقية يتنفسها ، وبين عالم كامل من الخونة والأوغاد ، بين الثائر الفردى ، وعالم الخونة الاجتماعى ، صراع فرد نواياه طيبه ، ولكن ينقصه النظام ، ضد عالم من الخونة محكم التنظيم . . (٢)

لذلك ، كانت رصاصاته دائما تخطي الهدف ، وتصيب الأبرياء ، فعندما اطلق النار على عlish ، كان القتل شخصا آخر ، عاملا بريئا ، اسمه شعبان حسين " أى هزيمة جنونية ، أى جريمة بلا جدوى ، وسيطارده حبل المشنقة و Elish آمن ، هذه هي الحقيقة ، كأنها جوف قـبـر انكشف . . (٣)

وعندما اطلق النار على رؤوف علوان ، كان القتل البواب ، برىء ضعيف آخر " أما مسدسك فالظاهر انه لا يقتل الا الأبرياء ، وستكون انت آخر ضحية له . . (٤)

وبالفعل ، كان سعيد مهران ، الضحية الأخيرة في اللص والكلاب ، لجأ أخيرا الى القرافة ، فحوصر فيها ، وخير بين الموت ، وبين الوقوف امام العدالة ، فازدري الموت ، وقام بالرصاص ، ورأت

(١) اللص والكلاب - ص ١٤٢
(٢) حافظ ، صبرى - الاتجاه الروائى عند نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد الحادى عشر ، نوفمبر ، سنة ١٩٦٣ - ص ٤٨
(٣) اللص والكلاب - ٨٦
(٤) - - - ١٤٦

عيناه المعدبتان بالخوف ، شبح الموت يشق الظلام ، وجفلت سناء بلا امل ، وكانت النتيجة انه استسلم بلا مبالاة .

لقد اراده نجيب محفوظ ، ضحية رمزا ، فتك طبقة من المجتمع ، طبقة اضعف منها " ان من يقتلني يقتل الملايين ، انا الحلم والامل وفدية الجبناء ، وانا المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه . " (١)

وفي الاقصوه القصيره " الوجه الآخر " ، من مجموعة " تحت المظلة " ، يظهر هذا الصراع الطبقي ، بمأساويه فاضحه ، حيث يقتل رجل الامن ، أخاه ، للمحافظة على عمله ، وتقدمه . فأخوه في نظره " اعتدا ، برمجه ، بملطجة ، مخدرات ، عريضة ، سرقة ونهب ، وقتل اعراض . " (٢)

ولم يكن الأخ ، ليقتل اخاه ، لولا انه يريد ان ينتقم ، وان يتسلق ، وليدس في طريقه من يعترض هذا التسلق ، ولو كان أخاه .

وأخوه ، في رأى صديق الطرفين ، المرعي الفاضل :

- " ليس كائنا من جنس آخر غير جنسنا ، الحكاية انه اسير الاهواء التي وفقنا اليها

كبحها . .

- شرير بطبعه . .

- الا فضل ان نقول ان ثمة معاملات صادفته داخل البيت ، واخرى في الطريق .

- هو الفرق بين المدنيه والوحشيه . " (٣)

(١) اللص والكلاب - ص ١٤٨

(٢) تحت المظلة - ص ٥٢

(٣) - - - ص ٥٢ و ٥٣

والواقع ان رمضان - الشرير - ، استولى على عروس عثمان - رجل الأمن - ، فحرمه من حياة اجتماعية ، بلا فضاء ، ولا عيوب . وهو الآن ، بمسلكه ، يهدده في عمله ، وامكانيات ترقيته ، لذلك فلا بد من القضاء عليه .

ويتصارع الأخوان ، ويقتل رجل الأمن ، أخاه . .

وتكون نتيجة القتل ، ان يسقط رجل التربية ، صديق الأخوين ، عن درجات سلم التسلق ، وان يختار الهروب من دنيا الصراع ، بالأنزواء : " سأنبذ التربية ، والقواعد ، والطقوس ، لقد اضعت ايامي في صحبة العقلاء ، سألهو بالأشياء العتيقة ، سأعرض عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفني الدوار . فليكونوا سعداء نافعين ، ولا أكن مجنونا محزنا . " (١)

ويتكسر الرجل ، ضحية جديدة ، من ضحايا المجتمع . .

وفي اقصو " حلم نصف الليل " ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، تدفع الغيرة بالولد ، لأن يقتل ازواج امه ، واحدا تلو واحد ، دون ان تبدو عليه صفة القاتل ، ولا سماته .

فعباس ، في العشرين من عمره ، طيب القلب جدا ، تلوح في عينيه الواسعتين ، نظيرة صامته ، ولعلها ناطقة بلغة مجهولة . يبتسم كالأطفال ، ويطلق شاربته ولحيته ، ويحبهما . وهو امي " ، لم يحصل في الكتاب حرف ، ولذلك فتح له ابوه دكانا من دكاكين العمارة ، لبيع الحلوى ، والفول السوداني . فكان يصدق على الأطفال بغير حساب ، ولما تزوجت امه من حنين ، غاب عن الحي اياما ، ثم عاد وهو يقول لكل من يلقاه :

- " لا يصح ان يحل محل الأب رجل آخر . .

ورفع رأسه نحو مسكن امه وصاح بأعلى صوته :

- يا ام عباس . . . الله يسامحك . . " (١)

العريس الأول ، قتل بعد منتصف الليل ، دون ان يعرف قاتله ، وكان بعد زواجه من الأرملة الثرية ، قد اضطهد ها ، واضطهد ولدها عباس .

وتزوج المرأة مرة أخرى ، من شاب بدا لطيفا ، وانتهى بأن استولى على اموالها ، وشارك ولدها دكانه • ويقتل هذا الآخر ، بالطريقة نفسها .

ويكتشف بيومي اللبان ، ان القاتل ، هو عباس المسالم ، وذلك باعتراف القتل الثاني ، لكنه " عند التحقيق نسي كل شيء " ، وتلك ارادة الله ! " (٢)

الزوجان ، ذهبا ضحية طمعهما بمال الأرملة ، أى انهما كانا يريدان ان يتسلقا ، والولد ، قتل بدافع الخيرة ، والمحافظة على امه ، وأموالها ، أى انه لم يرد لنفسه السقوط درجة عن السلم .

وفي اقصوصة " معجزة " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت انسان ، ضحية مزاح اراده بريئا ، هو نوع من عبث السكارى . فعندما رغب رجل وحيد ، في حانه ، ان يتسلى ، اخترع اسمين غريبين ، ونادى الغارسون يسأله عن صاحبيهما ، فنودى على احدهما بالميكرفون ، وطلبه الآخر بالتلفون • ومنذ تلك اللحظة ، طفق الرجل يبحث عن تفسير لهذه الظاهرة المحيرة . قالوا له ، اما ان تكون مصادفة خارقة جدا ، واما ان تكون ظاهرة طبيعية جدا .

(١) بيت سيء السمعة - ص ٢٢

(٢) - - - - - ص ٣٣

ولم يقنع بالتفسيرين ، كان يريد تفسيراً خليقاً بأن يرفعه درجات ، بأن يغير وجه حياته ، بأن ينتشله من همم الحياة ، ومازقها . كان يريد تفسيراً ، يساعده على التسلق ، ويعدّه بالقوة ، والنور ، والامتياز . (١)

لقد قنع عمراً طويلاً ، بأن يكون كاتب حسابات ، يقتصر عمله على التعليمات المالية ، لائحة المخازن ، والمشتريات والأوامر المنفذة لها .

وفي بحثه المضني عن معجزات يحققها ، يكتشف أنّ المعجزة الأولى التي حققها ، لم تكن سوى عبث سكران برى ، أراد أن يمازحه . فيغورامله بالحياة ذات الامتيازات ، وبالقبور المبارك بعد الموت ، وينقض عليه بدورق النبيذ ، ويجهر عليه بالشوكة . . . وتسقط ضحية جديدة ، من ضحايا التطلع الطبقي .

وفي اقصوصة " وجهها لوجه " ، من مجموعة " بيت سيء السمعة " ، ينهال صعيديان من انبوب ، على رأس ماسح الأحذية ، الطيب ، الذي لا اعداء له ، بالمهراوات ، ولا يتركانه حتى يلفظ انفاسه . حصل ذلك ، في الشارع العام ، امام الناس .

سبب القتل ، ثأر قديم ، عمره عشرون سنة . فمنذ ذلك التاريخ ، هرب الصعيدي من بلده ، الى القاهرة ، في محاولة للنجاة ، الا ان العداوة القديمة لم تمت ، ومات الانسان ، " حكاية لم تعد تدهش احداً " .

العداوة القديمة في المجتمع الصغير ، ذهبت بحياة الانسان ، وفي المجتمع الدولي ، تذهب العداوات بملايين الناس ، بسبب الحروب .

(١) خسارة القط الأسود - ص ١٣٣ و ١٣٥

- "ولكن لماذا تقم الحروب؟؟
- العداوات ، الا لمان يستعدون لهذا اليوم منذ اكثر من عشرين سنة .
- عشرون سنة ، اذن كيف يمكن ان تنسى عداوة ؟!
- الناس لا ينسون العداوات ، ولكن من حسن الحظ انهم يتزوجون رغم ذلك ! (١)

عشرون سنة ، خمس عشرة سنة ، ما هم !! ففي اقصوصة "كلمه غير مفهومه" ، من مجموعة "خمارة القط الأسود" ، ينظر حسونه ، ابن الفتوة ، الذي قتله المعلم حنيس ، منتظرا خمس عشرة سنة ، ليفتك بقاتل ابيه وسط اعوانه ، الذين لا يعرفون من اين أتت الضربة ، ولا كيف صرع المعلم .

النتيجة : "شعور بعجز مهين" (٢) الا انه لو ظهر القاتل لهم لما توقفت النتيجة على الشعور ، ولتعدته الى ممارسة القتل ، كما حدث في اقصوصة "المجنونه" ، من المجموعة نفسها . ففي حارات الفتوات ، تنشب المعارك للسبب الخطير ، والتافه ، على السواء ، وربما لمجرد نكته ، او غمزه عين ، او نحنة . (٣)

من بين المعارك التي ابتليت بها الحارة ، برزت معركة بروزا داميا لا ينسى . معركة غريبة ، فظيعة ، غامضة ، غطت على جميع ما سبقها ، أو لحق بها من معارك ، لذلك سميت بالمجنونه ، وكان ضحايا كثيرون ، لم تبق اسره ، الا وفقدت رجلا ، أو اكثر .

وفي التحقيق ، لم يستطع المأموران يصل الى اسباب المعركة ، وبالتالي الى هلاك الحارة

- "هلكت الحارة لغيباء غلام
- او غيباء رجل وهو الارجح
- بل هو غيباء الحارة وهو الاصدق" (٤)

(١) بيت سيء السمعة - ص ١٧٢

(٢) خمارة القط الأسود - ص ١٦

(٣) - - - - - ص ١٤٦

(٤) - - - - - ص ١٥٣

٢ - القتل الأجرامي :

أسبابه ونتائجه :

في محاولة لتقصي الأسباب ، التي حملت صابر ، بطل رواية " الطريق " ، على تنفيذ جريمته المزدوجة ، بقتل زوج عشيقته ، ثم قتلها هي ، يلجأ نجيب محفوظ الى استاذ جامعة ، وصحافي ، واستاذ بالخدمة الاجتماعية ، واستاذ علم نفس ، ورجل دين . فتبرز أمامنا الأسباب الآتية :

- ١ - استاذ الجامعة ، قال : ان " السبب هو الزواج غير المتكافي " ، بين الزوج والزوجة .
- ٢ - كاتب يوميات الصحيفة ، قال : انه الفقر ، وان كريمة شهيدة لصراع الطبقات ، وفوارقها .
- ٣ - استاذ بالخدمة الاجتماعية ، ناقش نشأة صابر في احضان تاجرة اعراض ، ورواسبها في نفسه .
- ٤ - استاذ علم النفس ، قال : ان " صابر مصاب بعقدة حب الأم ، فهو اولا وجد في كريمة بديلا عن امه ، فأحبها . وان لا شعوره أصر على الانتقام لأمه ، فقتل صاحب الفندق مركزا للسلطة ، وطمع في مصادرة امواله ، كما صادرت الحكومة اموال امه .
- ٥ - شيخ من رجال الدين ، قال : ان " المسألة في جوهرها ، مسألة ايمان مفقود ، وان صابر لو بذل في البحث عن الله ، عشر ما بذل في البحث عن ابيه ، لكسب الله له جميع ما طمح اليه عند ابيه ، في الدارين . (١)

الأسباب اذن ، تنبع من عوامل اجتماعية ، وتربوية ، ونفسية : ان القوادح ، التي هيأت لابنها حياة غنية ، رغيدة ، لم تقدر ان تهنيء له كرامة ، ولا عملا ، ولا سلاما . لذلك فهي تؤلمه ، بأنه سيجد في كنف ابيه ، الاحترام ، والكرامة ، وسيتمتع من ذل الحاجة الى أى

مخلوق ، بما سيهيء له من عمل ، غير البلطجة ، او الجريمة ، فيظفر آخر الأمر بالسلم .

أبوه ، الذي بعث حيا يوم موت امه ، بعث صورة ، ووثيقة زواج ، فصار امكانيه ، وحلما ، وصار املا . أبوه هذا ، صار يمثل الخلاص من واقع مرير ، الى حياة افضل . وفي سبيل الوصول الى هذه الحياة الأفضل ، وفي اثناء الصراع من اجل هذه الحياة الأفضل ، وقعت الضحايا .

تمر الايام ، وهو يبحث عن أبيه ، وتكاد تنفذ نقوده ، وهو لا يزال يبحث . وما دامت عشيقته قد انقطعت عن لقاءه ليليا ، خوفا من زوجها ، صاحب الفندق العجوز ، الذي كتب كل املاكه باسمها بعد وفاته ، وما دام هو بحاجة الى ماله ، والى جسدها ، فليقتله ، بالاتفاق معها " اليأس لا يدع لنا سبيلا ، ولا وقتا للاختيار يا عم خليل ، حتام تغالب النوم الأبدى ؟ لماذا تصرّ على جرى الى مصير محتم ؟ ما معنى ان تتمتع بمالك ، سالب حياتك ، وان تسقط ابي بلا عقل ، وان يصمت ابي بلا رحمه ، وان تتعلق آمالي بازهاق روح ، خبرني عن معنى ذلك كله . " (١)

وينفذ صابر جريمته بحذافيرها ، فيقتل الرجل وهو نائم في فراشه ، بقضيب حديدى على رأسه . ويسقط صابر ، يصبح قاتلا ، وتستحيل عليه منذ تلك اللحظة ، الحياة الشريفة ، فحين تأتية الهام (الحب النقي) لتعرض عليه مدخراتها ، كرأس مال ، وتدعوه لحياة شريفة معها ، يهتف بصمت " آه لو يقدر ان يرد الحياة الى عم خليل ، ويستيقظ من الكابوس . فلتبتعد الهام عنه ، فهي ليست الا عذابا . أما جريمة فقد جمعت بينهما الجريمة برباط لن ينقسم حتى الموت . " (٢)

ويعرف صابر ، من وكيل القتل ، ان الخادم اتهم بالقتل ، بسبب السرقة ، وان للزوج - عشيقته - حياة ثانية مع زوجها الأول . ويستنتج انها استعملته للقتل ، كي تحتفظ بالثروة ، لها ، ولزوجها .

(١) الطريق - ص ١٠١

(٢) - ص ١٥١

ويصيبه جنون ، " اجل كان الجنون يعصف به عصفا " . ويتوجه اليها ، وفي نيته أن يقتلها ،
لأنها دبرت قسمة جهنمية : " له الجريمة ، ولها وللرجل ، الثروة " (١)

وفي يأسسه ، يهجم عليها ، ويخنقها . . . ويقبض عليه ، ويسجن .

وفي السجن يخبره محاميه ، أن اياه عرف ، ولكنه يظل مسافرا ، لأنه اتخذ الحب عملا ،
ولن يجديه نفعا .

لا جدوى من أى شيء . فلقد ضاعت الحرية ، والكرامة ، والسلام ، والهام ، وكريمة ، ولم يبق
الآن حبل المشنقة .

٣ - شهداء وضحايا :

كان لاحتلال القوات البريطانية لمصر ، ضحايا كثيرون ، سقط بعضهم ، وهو يصارع الاحتلال بالطريق المباشر اثناء المظاهرات ، وسقط البعض ، وهو يصارع للحصول على شيء من حقه ، وفي حياة معقولة ، بعد ان سلب الاحتلال — بالتواطؤ مع الاقطاع ، والارستقراطية الحاكمة — كل حق له . والاثموزجان الصارخان لهؤلاء الضحايا ، هما فهمي احمد عبد الجواد ، وعباس الحلو .

فهمي ، هو ابن الثورة الوطنيه ، التي اندلعت سنة ١٩١٩ ، طلبا للحرية والاستقلال ، يشترك وهو طالب ، في توزيع المنشور ، الذي بعثه الوفد الى السلطان ، يطالب فيه باستقلال مصر ، ويشتعل غضبا بعد ان نفى الانكليز ، سعدا واصحابه ، الى جزيرة مالطه ، ويلتقي مع رفاقه الشباب الغاضبين ، ويقررون الاضراب .

ولأن الشباب يأتون ، كما يقول سامي خشبه ، من مجتمع " ظل " تسعة قرون كاملة تحت أثقال التجهيل ، والافكار ، والتجمد الحضارى ، والضياع القومي ، والقهر السياسي ، والفقر الروحي ، فانهم لم يعرفوا كيف يستعدون لصراع منظم من اجل الاستقلال " (١) ، مع انهم كلهم ، كانوا مهيين نفسيا ، للموت في سبيل مصر " سيان ان احيا او ان اموت ، الايمان اقوى من الموت ، والموت اشرف من الذل ، فهنيئا لنا الامل الذى هانت الى جانبه الحياة ، اهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض " . (٢)

ان المحاولات المتواصلة ، التي بذلت خلال قرون ، لترويض روح الشعب المصرى ، وعقله ، واخضاعهما لنظم عقليه ، وفكريه ، تقوم في معظمها على النقل ، والخرافه ، او على الاستعلاء العنصرى ،

(١) خشبه سامي — شخصيات من ادب المقاومة — مجلة الآداب — العدد السادس ، حزيران سنة ١٩٦٨ — ص ١٢

(٢) بين القصرين — ٤١٤

أو التزيف الحضارى المنظم ، هي التي دفعت بأهلين كثيرين ، لأن يمنعوا أبناءهم الطلبة ، من الخروج في المظاهرات ، وان يستعينوا على طرد الإنكليز ، بآية الكرسي ، وسورة قل هو الله احد ، التي تطرد الأشباح ايضا . (١)

ومن هؤلاء الطلبة ، فهمي ، الذى يتعرض لضغط شديد من والديه ، من امه السلبية الضعيفة ، وابيه المتسلط الجبار ، الذى يطلب منه ان يقسم على القرآن ، بأنه لن يشترك في الثورة . وهكذا كان على هذا الشاب ان يقاتل على جبهتين ، جبهة الاستعمار المتمثل بالاحتلال ، وجبهة الرجعية المتمثلة بالعائلة وتقاليدها ، فالعائلة تؤمن بأن الإنكليز لا يغلِبون - وهذا بفضل عقدة الاستعلاء العنصرى - لأنهم من طينة غير طينة البشر ، اسمى وأرفع .

ان السيد احمد عبد الجواد ينصح ابنه عن طريق الشيخ متولي ، صانع الاحجبه ، ان يبتعد عن موارد التهلكه ، فربك القادر وحده على اهلاك الإنكليز . (٢)

ويرد عليه فهمي " ليس ثمة خطورا ما نعمل ، غيرنا يقوم بأعمال أجل ، كالأشتراك في المظاهرات . وقد استشهد منهم كثيرون ، ولست خيرا منهم ، ان الجنازات تشيع بالعشرات معا ، ولا هتاف فيها الا للوطن ، حتى اهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتي ، وما حياة أى انسان . (٣)

قد تكون هناك فئة ، تهتف وتزغرد للموت ، الا ان عائلة فهمي - بالتاكيد - ليست منها . فهي من طبقة التجار ، الذين سيطرت على حياتهم القيم الاقطاعيه ، التي خلقت بالفعل تناقضات بشعه بين علاقاتهم الاجتماعيه الجديده ، وما يحرصون عليه من تقاليد . (٤)

-
- (١) بين القصيرين - ص ٢٥٤
(٢) - - - - - ص ٥٤٤
(٣) - - - - - ص ٨٨٤
(٤) شكرى ، غالى - المنتمى - ص ٢٩

فليس مستغربا اذن ، ان تصاب الأم بالهلع ، والتفجع ، حين تعرف ان ولدها اشترك في المظاهرات سرا ، لقد اشترك في المظاهرات ، لأجل استقلال الوطن ، ولكن مالها هي ولا استقلال الوطن " لقد ولدتم جميعا في ظل حكمهم ، وما زلنا احياء بحمد الله " والحق انه لم يكن متوقعا من امرأة ، عاشت حياتها عبده ذليلة لزوجها ، ان تفهم او تتحسس حاجة وطنها للحرية والاستقلال . وطالما ان حاجاتها ، وحاجات بيتها المادي ، مؤمنه ، فلن تحيد عن ركب المضطهدين السليبين .

وربما كان لموقف الأبوين السلي من اشترك فهمي الفعلي في المقاومة ، اثر في مقتله ، ففي أثناء مظاهرة تأييده سلميه ، سمحت السلطة بقيامها ، ليعرب الشعب عن ابتهاجه بالأفراج عن سعد ، وخرج فيها الشاب بموافقة والديه ، اعتراه احساس بأنه دون الكثيرين من اقرانه ، جرأة وأقداما ، " ما انا الا " محارب اعزل ، ولئن فاتني الرائع من اعمال البطولة ، فحسبي انني لم أتردد مرة واحدة ، عن الألقاء بنفسي في اتون المعركة " (١)

كان الشاب يعزى نفسه ، المطلوب منها ، ان تطيع سلبية الوالدين ، لكن نفسه كانت تواقفة لعمل بطولي ، لذلك فانه عندما انقلبت المظاهرة السلميه ، الى مظاهرة دامية ، وتفرق الجمع الهائل لدى دوى الرصاص ، ظل هو واقفا يتحدى الموت ، امام معسكر الأزيكه .

ولم يفت القتل والأرهاب ، من عزيمة المصريين على الشوره ، من اجل الاستقلال ، وكما سقطت منهم الضحايا ، سقطت الضحايا من قوى الاحتلال .

ففي رواية " ميرامار " ، تكون ماريانا ، صاحبة البنسيون ، هي ارملة ضابط انكليزي ، قتل في ثورة سنة ١٩١٩ ، يتأمل عامر وجدى - الصحفي العتيد - ، صورته متسائلا " ترى من قتلك وبأى سلاح قتلك ؟ وكمن جيلنا قتلت قبل ان تقتل ؟ جيلنا العتيد ، الذى فاق الأجيال جميعا في غزارة ضحاياه . " (٢)

(١) بين القصرين - ص ٥٦٦

(٢) ميرامار - ص ٢٥

سنة ١٩١٩ ، قاتل المصريون على ارض مصر ، من اجل التحرر ، وظلوا يقاتلون الى ما بعد ثورة ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٢ ، وامتدت رقعة الأرض التي يقاتلون عليها ، الى ابعد من مصر . ومن اليمن يلتقط نجيب محفوظ ، لحظة مأساويه ، تمثل موت الجندي المصرى هناك ، في اقصوصة " ثلاثة ايام في اليمن " ، من مجموعة " تحت المظلة " .

شاب موظف ، تجند في سلاح المظلات دون تدريب ، والتحق بالقوات المقاتلة في اليمن ، دون ان يؤدع امه ، او خطيبته . كان موضع ثقة رئيسه ، وطول عمره وهو من المتوكلين على الله ، المعتمدين على دعاة الوالدين .

ويخوض المعارك بقليل من الخبرة ، وكلما استشهد زميل له ، فكري في اهل الشهيد بمصر " يظل الميت حيا في وجدان اهله بمصر ، حتى يبلغهم خبره . وفكرت فيك يا مصر . بكل وجداني الحزين . من فوق قمة الجبل الأسود ، وتحت سيل من المطر المنهمر ، فكرت فيك يا مصر . " (١) ويموت هو الآخر ، في احدى المعارك . .

ان دخول الجندي الى المعركة ، بغير تدريب ، متوكلا على الله ، ومعتمدا على دعاة الوالدين ، ورضا رئيسه المباشر ، ثم المنولوج الداخلي ، الذي جرى على لسان الأديب الضيف ، والمرافق للجنود في اليمن ، والذي قارن فيه ، بين احاديث الأديباء المصريين الفردييه ، وكلماتهم ، امام الجمهور ، وبين تجوالهم في السوق ، وموقفهم وراء المنصه ، ووصوله في تأملاته ، الى ان هناك شيئا ما ينقصنا ، لعله محو التناقض ، بين ما يقال وما يجب ان يقال " (٢) كل هذا ، يجعلنا نعتقد ، بأن نجيب محفوظ ، يثور على الوضع الذي أدى الى هزيمة الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ . ولولم تكتب هذه الاقاصيص ، في الفترة بين اكتوبر وديسمبر سنة ١٩٦٧ ، لحسبنا انه يرهص بالهزيمة .

(١) تحت المظلة - ص ١١١

(٢) - - - - - ص ١١٩

ويؤكد اعتقادنا ، أجابته عن سؤال ورد في مجلة " مواقف " ، حول ثورية الأدب بعد الخامس من حزيران ، ان يقول :

" ليست ثورة الأدب منفصلة عن المصنع ولا عن الحقل ، ولا عن المكتب السياسي . انها متصلة مع الثورات كلها (ثورة العامل والفلاح والسياسي) . وهي تبدأ في قلبه أولاً ، وفي تفاعله مع الناس ثانياً ، تبدأ في احساسه التنبؤي الطبيعي ، الذي لا اعتقد ان فنانا يستحق هذا الاسم ، خال منه ، لأنّ الفنان الأصيل كالحيوان : كالعصافير والفيلة والنسور التي عندما تحسّ بخطر محقق تصدر بالغرير أصواتاً خاصة معلنة للملأ ، انّ خطراً ما آت . والفنان اذا لم يكن عنده هذا القدر من الأحاساس العام الذي يجعله ويجعل ادبه في مستوى النبوءة ، متضمناً دعوته الى يمين او يسار او امام ، تكون اجهزته كلها مختلة . من هنا تنطلق ثورة الأدب : انها النبوءة والنداء . انّ على الأدب ان يعكس اثر الخامس من حزيران بشكل ثوري ايجابي كسفي ، يفحص بعُمق عيوبنا التي أدت الى هذه النكسة ، وفي الوقت نفسه ، يثير الهم ويدفع الأنسان العربي الى الخروج من هذه الدوائر ، الهزيمة في الحرب هي نتيجة لعوامل كثيرة جدا بعضها نفسي ، بعضها اجتماعي ، بعضها سياسي . تفاعل العوامل كلها مجتمعه ، فيما بينها ، انتهت في تكثيف العمل الأخير واعطائه مكانته في التاريخ . الهزيمة لم تكن صدفة . . انا لا اتذكر ان هزيمة حصلت في التاريخ كان يمكن ان يحل محلها نصر . " (١)

لكل فترة ، من فترات النضال السياسي ، ضحايا وشهداء ، فهمي عبد الجواد ، كان ضحية ثورة سنة ١٩١٩ ، والجندى المصرى في اليمن ، ضحية الفترة التي ارهقت بهزيمة حزيران ١٩٦٧ ،

(١) نجيب محفوظ - الأدب ، الحرية ، الثورة ، - مجلة مواقف - العدد الأول ، تشرين ثاني ،

وعباس الحلو ، هوضحية الحرب العالمية الثانية ، فقد سقط صريعا ، بأيدي الجنود الانكليز .
وتجسد رواية " زقاق المدق " ، مأساة الشعب المصرى ، أبان الحرب العالمية الثانية ، حيث
نهب الأعراس ، وافساد الذم ، وطبقة اللصوص ، الذين اثروا على حساب المعسكرات البريطانية ،
فكونوا رأسماليه ، انتهازيه ، جديدة .

يعود عباس ، الى الزقاق ، بعد ان عمل شهورا مع الانكليز ، كي يوفر المال ، ويتزوج من
حميده . وكان عباس ، قد اقل دكان الحلاقه ، باغراء من حسين كرشه ، الذى حثه على العمل
بمعسكرات الجيش الانكليزى : " عليك بالجيش الانكليزى ، كنز لا يفنى ، هو كنز الحسن البصرى .
ليست هذه الحرب بنقمة كما يقول الجهلاء ، ولكنها نعمة النعم . . وسوف تطول الحرب
عشرين عاما " . (١)

يصف غالى شكرى ، عباس الحلو ، بأنه مثال الانسان المصرى الوديع المسالم ، الذى
يلتمس الحب ، ممزقا بين الأحاسيس الرومانسيه ، والشهوات الواقعيه ، وكرامته تأبى عليه أن
يضيع بين هذه وتلك " (٢) ، يعود من المعسكر ، فيكتشف ان حبيبته اختفت ، وحين يعرف
ان آخر مرة شوهدت فيها ، كانت برفقة افندى ، يعتريه غضب نارى ، ومقت نهم ، غير ان شعوره
بالخيبة — الناشئة من ذهاب الأمل وتمرغ المعبود في التراب — كان افزع من الغيرة نفسها ،
وتعتريه فكرة الانتقام ، بطعن القلب الذى غدره . الا انه بعد أن تهدأ ثورته ، يرسب فى
قرارة نفسه ، حزن عميق ، ويأس مدلهم .

وينصحه اهل الزقاق ، بأن ينسى ما أصابه ، ويعود الى عمله ، ويجمع المال ، ويفتح دكانا
جديدة . لكنه يأبى ان يتنازل عما اعتبره حقه ، حميده من حقه ، فهي بنت حيه ، وهي التسي

(١) زقاق المدق — ص ٢٤

(٢) شكرى ، غالى — المنتمى — ص ١٣٩

وعده بالزواج ، ومن اجلها ذهب الى معسكرات الانكليز ، وجمع المال بالذل ، والعرق ، والجهد ،
وانذا لم يستطع الحصول عليها حيه ، فليقتلها ، حتى لا يأخذ احد حقه .

وبتشجيع من ابن حيه ، حسين كرشه ، يذهب الى الحانه التي تعمل فيها حميده ، عاهره .
ويراها عباس في جلسة شائبة بين نفر من الجنود . كانت تجلس على كرسي ومن ورائها جندي ،
واقفا يسقيها خمرا من كأس في يده ، وقد مدت ساقها على حجر آخر ، يجلس قبالتها ، وحفا بهم
آخرون يشربون ويعرعدون .

وتصرخ حميده به ، ان يغرب عن وجهها ، بعد ان ناداها ، فتفعل به غضبتها ، وصراخها ،
فعل النفط بالنار ، فيجن جنونه ، ويختفي من نفسه ما طبع عليه من تهيب ، وتردد ، ويجد ما
عاناه في الايام الثلاثة الماضية من قهر ، وعذاب ، وقنوط ، ثوبا في رجل نفسه .

يتناول عباس ، بعض زجاجات البيرة الفارغه ، ويقذفها صوبها ، فتصاب في وجهها ، ويتفجر
الدم غزيرا من فمها ، وانفها ، وذقنها . وعندها ينقض عليه الجنود الغاضبون ، كالوحوش الكاسره ،
وتتطاير الكلمات والركلات والزجاجات . وحسين كرشه ، واقف مقهور ، مغلوب على امره ، لا يـدري
كيف يشق سبيله الى صاحبه ، وسط اولئك الجنود الكواسر القاتلين . وتتقاذف الايدي والارجل ،
عباس الحلو ، وهو كالكره ، لا يملك للقضاء دفعا .

يموت عباس ، يقتله صراعه ضد قوى الاحتلال ، والانتهازيه الرجعيه ، يقتله ايمانه بأن الله
حقوا يجب الدفاع عنها . وحين يعود حسين كرشه ، ويشيع في الحي ، ان عباس الحلو ، قد قتله
الانكليز ، يبكي عم كامل ، شريك عباس في دكانه ، بكاء مرا ، وينتحب كالأطفال .

الا أن سليم علوان ، المصاب بالذبحة الصدرية ، يكون اشد أهل الزقاق تأثرا ، لا على الفقيد ،
ولكن فزعا من الموت ، الذي اقتحم عليه الزقاق ، فأثار مخاوفه وضاعف آلامه ، فعاودته افكاره

السوداء ، وتصوراته المريضة ، وأخيلة الاحتضار ، والموت ، والقبر ، التي انبكت اعصابه .
أهل الزقاق ، مشغولون بتأمين حياة معقولة لهم . بعضهم يذهب الى معسكرات الانكليز ،
وبعضهم ينبش القبور ، ويسرق اسنان الأموات . وحيدة تختار الطريق القصير ، طريق العهر .
والثرى الوحيد ، سليم علوان ، يعيش في خوف دائم من الموت .
صورة انسانية ، واقعية ، رسمها الفنان ببراعة ، وأنهى الرواية بحقيقة بسيطة ، وهي
أن المجتمع يظل يسير دون الاكتراث بضحاياه " انداحت هذه الفقاعة ايضا كسوابقها
واستوصى المدق بفضيلته الخالدة في النسيان وعدم الاكتراث . " (١)

٤ - موت العاشق الشاب :

الأسباب :

- أ - استهتار الشاب بالمرض لأجل اللهو .
- ب - الخوف من فقدان الوظيفة .
- ج - الخوف من هز المجتمع وشماتته .
- د - الخوف من فقدان الحبيبة .

رشدى عاكف ، شاب من أسرة متوسطة ، يعمل موظفا صغيرا في البنك . يصاب حين اشتداد البرد ، بعد انصرام نوفمبر ، بالأنفلونزا ، فلا يعبأ بوعكات البرد ، ويكتفي ببلع اقراص "الأسبرين" ، اذا اشتد عليه وجع الرأس .

ويشتد عليه المرض ، فيمنحه طبيب المصرف ، اسبوعا . وتتدهور صحته بسرعة مخيفة ، فينصحه أخوه ، ألا يفرط في صحته ، فلم يعد جسمه يقام ، لأنه يكلفه ما ليس في وسعه . لكن رشدى ، لا يعبأ بنصائح أخيه ، ويعتبر الأسبوع الذى قضاه في الراحة دون لهو ، ولعب ، وملذات ، اسبوعا ضاعا هدرًا ، فيعود لحياته العادية : سهر ، وشرب ، ولعب ، ونساء . وتكون النتيجة ، أصابة رشدى بسعال حاد ، يرافقه تدهور عام في صحته وقواه .

وفي المصرف أثناء العمل ، يبصق رشدى في منديله دما ، ويصيبه الذعر والارتياح ، ثم يندس المنديل في جيبه ، خشية افتضاح أمره ، ويذهب الى طبيب مختص ، بعد ان يستولي عليه القلق والاضطراب " وكان سمع مره صاحباه يقول : ان السل داء لا برء منه . " (١)

يتأكد للطبيب ، بعد التصوير بالأشعة ، أن رشدى مصاب في رئته اليسرى ، وأن عليه بالغذاء الجيد جدا ، والراحة التامة ، والهواء الجاف النقي ، وكل أولئك متوفر في المصححة ، وينصحـــــــــــــــــه

بالذهاب الى حلوان دون توان .

ويسأل رشدى ، وقد أصابه هلع ويأس ، كم من الوقت يستغرق العلاج ، وحين يعرف انه ستة اشهر ، ينقبض صدره ، ويوقن ان هذه المدة تقضي عليه حتما بفقد وظيفته " وغدا اذا ذاعت الحقيقة وعلم بها الجيران فقد فاته كذلك . " (١)

ويقرر الشاب ، ان يخفي مرضه عن الجميع ، فلا يعلم بسرّه انسان ، وبذلك يطمئن على وظيفته وفاته . لذلك يرفض فكرة المصح ، ويقرر ان يستشفى في البيت ، ولكن بغير الطريقة التي أشار بها الدكتور ، فالدكتور أشار عليه ، بألا يغادر فراشه ، مع العلاج الطبي ، مدة ستة شهور ، وبألا يتزوج الا بعد عام ونصف من تمام البر .

وأما هو ، فيظل يعمل في وظيفته ، لقد أقنع أخاه ، انه بوسعه ان يظل يعمل ، على ان يرتاح في أوقات الفراغ ، ويتغذى جيدا ، ويأخذ بعض الحقن " وسيتم الشفاء بأذن الله بغير ضياع مستقبلي وبغير فضيحة . " (٢)

ويحاول احمد - الأخ الأكبر - ان يقنع رشدى ، بأن ليس في الأمر فضيحة ، وان المرض بلاء من الله ، وكل انسان عرضة للأمراض ، لكن رشدى ، يصصر على التستر مع اخذ الاحتياطات ، كان يأكل في اوان خاصة ، ويغسل الحمام والمغسلة بمطهر . كل ذلك حتى لا تدرى امه ، وبالتالي اسرة فاته ، فيخسر حبيبته ومستقبله .

وحتى حياة الليل والسهر والعريضة ، لم ينقطع عنها ، خوف ان يشعر اصحابه وزملاؤه بما به ، فيشيح امره ، ويتعد عنه هؤلاء ، ويخسر وظيفته ، وفاته . " هذا الى جانب ميله الطبيعى للذات ، وميله الاصيل ، للامل ، والتفاؤل ، والجسارة ، والابتسام . " (٣)

(١) خان الخليلي - ص ٢٠٣

(٢) " " - ص ٢٠٧

(٣) " " - ص ٢١٩

ويظل على عهده ، من موافاة فتاته ، كل صباح ، في طريقها الى المدرسة ، حتى لا يشعرها بما به . الى ان تسوء حالته كثيرا ، ويمرض ، لأشارة الطبيب بالذهاب الى المصحة ، لكنه يظل مشترطا الا تعرف حبيبته . وينقل في اول مارس ، ويانتقاله ، تذوق العائلة طعم الحزن الممزوج بالرجاء والخوف ، وتبيت ليلتها الأولى في غم . الأب ، تلوح في عينيه نظرات شاردة ، والأم ، تبكي حتى تدمي عيناها ، والأخ احمد ، يحاول ان يخفف عنهما بحديث الرجاء والأمل ، لكنه في الحقيقة بحاجة الى من يخفف عنه . (١)

ويتسلم احمد ، رسالة من رشدي ، ينعي له نفسه فيها ، ويطلب منه قضاء ايامه الأخيرة بينهم .

ويرجع رشدي الى بيته ، ويلتم فراشه ، بينما تنقطع حبيبته ، ووالداها ، عن زيارته . وتنقل حجرة نوال ، بعيدا عن نافذة رشدي ، ويحال بينها وبين رؤيته ، بضغط من اهلها ، فيحزن ذلك رشدي كثيرا ، لظنه انهم قد عرفوا حقيقة دائه " اشع شي " في هذه الدنيا ، جفاء صديق بغير ذنب ، أو ان يكون ذنبه ، ان الصحة جفته . . ان " الخيانة قبيحة " .

وأما احمد ، فيقول لنفسه محزوناً " ربه ! كيف جفته وقد راح ضحية لها . " ونوال ، تعتبر نفسها غادره " ليس المرض بالشر الوحيد في هذه الدنيا ، فالغدر شر من المرض ، ماذا يظن بي ؟ بل . . كيف ادفع عن نفسي امامه وامام الناس ؟ " (٢)

الناس ، المجتمع ، الحاجة ، الغريزة ، التسلق ، تلك هي العوامل التي وصلت برشدي ، الى القبر . يموت رشدي لأنه يرفض الذهاب الى المصحة ، خشية ان يفقد وظيفته ، وألا يكفي ما تبقى معه من نقود ، لل إقامة هناك في الدرجة الثانية " ليس في طوقي الآن ان اعود الى الدرجة الثانية ، ومحال ان ارضى بالانتقال الى عنابر الدرجة الثالثة . " (٣)

(١)	خان الخليلي	-	ص ٢٢٤
(٢)	"	-	ص ٢٤٤
(٣)	"	-	ص ٢٥٠

لكن نجيب محفوظ ، لا ينسى وهو يسوق إلينا هذه العوامل مجتمعة ، العامل القدرى ، الذى دعا رشدى الى ان يطلب القرآن ، وهو على فراش الموت ، ويغرو هو في حضرة القرآن ، من آلامه ، ومخاوفه ، ويلوذ بالاستسلام ، والتسليم ، والصبر ، والتوكل على الله ، ويجد ارتياحا في الأذعان المطمئن الى ارادة الله ، وقضائه " يا رب ! اذا كانت مشيئتك قد قضت بأن ينتهي بهذا الداء أجلى ، فاسألك الرحمة بالتعجيل به " . (١)

ويموت رشدى في الليل ، ويستيقظ احمد ، الساعة الخامسة صباحا ، على حركة في البيت ، وقبل ان يخطو خطوتين في الدهليز المفضي الى حجرة رشدى ، يفتح باب الحجرة بقوة ، وتبدو امه على عتبه ، وقد رفعت ذراعيها فوق رأسها ، كمن يستغيث ، ثم هوت براحتيها على خديها ، تلطمهما بعنف وجنون .

الموت ، الذى تضافرت العوامل الاجتماعية النفسية ، وقضاء الله وقدره ، على حدوثه ، يورث بحدوثه آثارا اجتماعية ونفسية . . ويتداخل التأثير ، والتأثر ، بين الموت والمجتمع ، تداخلا متلاحما ، وتظل الدائرة تدور ، والخطوط تتلاقى اطرافها .

٥ - الموت بحادث :

سئل نجيب محفوظ ، ما هي فكرتك الكاملة عن الموت ؟ فقال : " الموت هو النهاية .. هو الفناء " .^(١) وفي رواية " أولاد حارتنا " ، يؤكد على لسان ابطاله فكرته عن الموت حين يتحاور عرفه مع الناظر :

- " لماذا نموت يا عرفه ؟
 - كلنا اموات وابناء اموات .
 - لست في حاجة الى تذكيري بما قلت ..
 - ليطل عمرك يا سيدى ..
 - طال اوقصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .. الموت ..
- الموت ، دائما الموت ، يجيء في اية لحظة ولائفه الاسباب أو بلا سبب على الاطلاق .^(٢)

اذن ، فالموت قدر حتمي ، نهاية لا بد منها ، تحصل بسبب وبلا سبب ، بذنب وبدون ذنب . وفي هذا الفصل نحاول ان نبحث عن الاثر الاجتماعي الذي يحدثه الموت الناتج عن حادث — عرضيه ، صدفة ، أو قدر .

ويبرز هذا الاثر بوضوح ، في رواية " ثرثرة فوق النيل " ، اذ ينهي موت رجل ، بحادث سيارة عرضي ، حالة اجتماعية ونفسية ، لها صفة الاستمرار . حاله ، هي اجتماع مجموعة من افراد المجتمع ، بينهم الموظف ، والصحافي ، والممثل ، والكاتب ، والمحامي ، والمترجمه بوزارة الخارجيه ، والممثلة المزواج ، والطلابه ، في عوامه يقيم برعايتها نوبي طاعن في السن ، وفي الايمان ، وفي القواده .

(١) شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد السادس ، حزيران سنة

١٩٦٠ - ص ١٩

(٢) أولاد حارتنا - ص ٥٣٣

يجتمعون كل ليلة ، على غرزة حشيش ، ولا هم لهم سوى العبث والسطلان . أى ان " هذه المجموعة ، حاولت فصل نفسها عن المجتمع ، بهذه الاجتماعات الليلية ، المتكررة بنفس الطريقة ، ونفس الترتيب . فبات من الطبيعي ، ان تتشابه شخصياتها ، رغم الفروق الأساسية فيما بينها . فالاختلافات ، تختفي في جو المخدرات ، الذى فرض عليهم طريقة غريبة ، في الكلام ، وفي السلوك . وفي رأى الدكتور عبد القادر القط ، ان الحادثة التي وقعت عرضا ، وهي قتل رجل ، اثناء قيادة السيارة ، وهم فيها يعبثون ، دون ان يبلغوا عن الحادث ، " انما هي جريمة ، وهذه الجريمة تدل على ان هذه الجماعة ، وان بدت منفصلة تماما عن المجتمع لأنها لا تمارس حياته ، فانها ما زالت مرتبطة ارتباطا متينا بهذا المجتمع ، حين عدت على قيمة اخلاقية من قيم المجتمع الذى تعيش فيه ، فثقلت هذه الجريمة على ضمائرهما كما تثقل على ضمير أى شخص عادى ، واضطرتها الى التفرقه فيما بعد . " (١)

ولو تتبعنا الاثر الذى خلفه هذا الحادث على موقف انيس ، والشخصية الرئيسية في الرواية ، وعلى مثله وحياته ، لوجدناه ذا شقين ، الشق الأول : اجتماعي مادي ، انه فقد وظيفته ، لاضابته بالارق من شدة الصدمة ، ولاضطراره للنم في المكتب تعويضا ، مما دفع بمديره ، الى احالته للنيابة الادارية ، بعد جدل بينهما فقد فيه انيس ، سيطرته على نفسه . أى ان أنيسا اصبح متشردا .

والشق الثاني : هو يقظة انيس الضميرية ، وهو الغارق في الحشيش والجنس ، وانقلابه من موقف العاثر ، الى موقف الجاد . فبعدهما طلب فنجان قهوته المعهود بالحشيشه من عم عبده ، وبعدهما اعتبر الحادث لا اهمية له ، " علمت من الحبه قبه " اذ به ينقلب ، بعد ان صفعه

(١) لطيفه الزيات ، عبد القادر القط ، شكرى عياد - ندوة حول ثرثرة فوق النيل - مجلة الآداب ، العدد العاشر ، تشرين أول ، سنة ١٩٦٦ - ص ١٣

رجب ، - وهو الذى كان يقود السيارة - ، وصفه لأنه عرّض بحبه هو وسماره - الصحافي - الجاده - انه به ينقلب الى انسان عنيف ، وجاد ، يدافع عن نفسه ، وعن العدالة . " كل شيء يهون الا " جريمة القتل ، ويجب ان تتحقق العدالة . " (١)

وهكذا يكون حادث القتل ، الذى تمّ في آخر الرواية ، هو الذى غير هذا الانسان ، من كائن سلمي الى كائن ايجابي . وعلى لسانه ، ينهي نجيب محفوظ ، رواية " شرقة فوق النيل " ، بهذه العبارات :

" أصل المتاعب مهارة قرد : تعلم كيف يسير على قدميه فحرر يديه ، وهبط من جنّة الفردوس فوق الأشجار الى ارض الغابه . وقالوا له عد الى الأشجار والاّ اطبقت عليك الوحوش . فقبض على غصن شجرة بيد وعلى حجر بيد ، وتقدم وهو يمد بصره الى طريق لا نهاية له . " (٢)

ويفسر احمد عباس صالح ، هذه العبارات بقوله : " انّ الفضول الى المعرفة او النزوع الغريزي اليها ، هو الذى دفع القرد الى تلك المغامرة الغدة التي انتهت بالحضارة الحديثة ووصلت الى عصر الفضاء ، وان مشكلة العيش هي التي حركت هذا القرد ، وهي التي علمته كل شيء " وهي التي تعلمه حتى الآن كل شيء . " (٣)

وموت الرجل المجهول ، وما خلفه من صراعات بينهم هبوطا وصعودا ، هو الذى عرّى شخصيات المجموعة : بالنسبة لعلّي السيد ، الناقد الفني المعروف ، " ليس الحادث المؤسف بقضية وطن ولا مبدأ ، المسألة بكل بساطة مجهول قتل خطأ ، هناك مسئولية لا انكر ، حماقة مألوفه - ويا للأسف ، ولكن هل نهون عليك جميعا ، هل تريد ان حقا التضحية بسعادتنا وكرامتنا ، فسي سبيل لا شيء . " (٤)

(١) شرقة فوق النيل - ص ١٨٨

(٢) - ص ٢٠١

(٣) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب -

العدد ٦١ ، ابريل ، سنة ١٩٦٦ - ص ٩٨

(٤) شرقة فوق النيل - ص ١٨٢

بالنسبة لسماره ، الصحافيه الجاذه ، التي كانت تصدر دائما على الاطلاق عن الجريح ، " مات فسي " جانب لا يعوّض ، نحن قتله ولن اصلح لشيء . " (١)

وأما مصطفى راشد ، المحامي ، فقد عرّى نفسه بهذه العبارة " لن يبعث الرجل حيا اذا بلغنا النيابة ، ولن يفيد من تضحياتنا . " (٢)

وأحمد نصر ، الموظف الخطير ، " لقد ركبنا الشيطان فلم يعد لنا من وجود . " (٣)
ووقف رجب في لحظة غضب يعلن " تتوهمون انني وحدي المسئول ، ولكنكم هربتم معي ، كلا يا أوغاد ، اني ذاهب ، سأذهب الى النقطة بنفسى ، اني اتحدى الخراب والموت والشياطين . " (٤)
ولم يقل لنا نجيب محفوظ ما اذا كان رجب قد ذهب أو لم يذهب ، لكن الواضح ان كل شيء في حياة المجموعة قد تغير ، وافصح كل واحد عن موقفه الحقيقي في الحياة .

وفي اقصوصة قصيرة ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، بعنوان " المتهم " ، نواجه موقفا مناقضا من حيث الفعل ، ولكنه مطابق من حيث الاثر .

فالاقصوة تقول ، ان انسانا ما قد دهس بحادث سيارة ، واتهم رجل برى اتى للمساعدة ، والقبض على الفاعل ، اتهم بأنه هو القاتل . وتتابع احداث الاقصوة ، انبثاقا من هذه التهمة ، فلكي يدافع الرجل عن نفسه ، امام غضبة الفلاحين القادمين للانتقام منه ، يضطر لأشهار مسدس ، ويصبح فيه الفلاحون :

— أتريد ان تقتلنا كما قتلتك ؟ —

- | | | | |
|-----|-----------------|---|-------|
| (١) | ثرثرة فوق النيل | — | ص ١٧٧ |
| (٢) | " — " — " — " | — | ص ١٨٢ |
| (٣) | " — " — " — " | — | ص ١٨٧ |
| (٤) | " — " — " — " | — | ص ١٩٥ |

وعبثا يحاول الرجل اقناعهم بأنه ليس الجاني . فهم في ادعائهم قد رأوه بأعينهم " رأينا كل شيء " وحين يأتي البوليس للتحقيق يشهد الفلاحون ضده " رأيناه بأعيننا ومنعناه من الهرب " (١)

ويوقفه البوليس ، بانتظار نتيجة التحقيق ، وبانتظار العملية التي تجرى للضحية .
الآن الشاب يموت ، ويتجادل الموقوف مع الضابط ، فيفقد اعصابه ، ويتهمه بأنه يؤخر حضور النيابة ، وبأنه يمنع القانون . فيهدده الضابط بوضعه في السجن ، ويتهمه بأنه يدعي الجنون ، ويبلغه في النهاية ، بشماتة وحقد ، أن المصاب مات متأثرا بجراحه .

الحادث وقع ، ومات الرجل ، ومع انه لا دخل له اطلاقا في موته ، ومع انه بوقوفه ، أراد بشهامة : ان يمد يد المساعدة للجريح ، وان يفسح للقانون مجراه العادل ، وجد نفسه متهمًا سجينًا . لولا الكذب والنزور لكنت الآن في بيتي آمنا .

٦ - موت الزعيم :

في مثل المرحلة التاريخية ، التي اختارها نجيب محفوظ ، بيئة للثلاثية ، حينما عاش الشعب المصري ، تجربة الشروع في النضال من اجل استعادة حريته ، يطرد الاحتلال ، والتصميم على الاستقلال ، بيد وموت الزعيم ، الذي بث روح المقاومة في الشعب ، والذي نفي وعذب لأجل مبادئه ، بيد و كارثة اجتماعية . "الا" اننا لم نلمس هذه الكارثة ، بردود فعلها العملية . وقد يعود ذلك ، الى سبب يورده سامي خشبه ، في مجلة الآداب ، حين يصف "عائلة احمد عبد الجواد ، عائلة سلبية ، يخيم عليها جو الفتور ، والسذاجة ، وعدم المبالاة ، فالأب جبار متعال ، بالغ القسوة ، لا تشغل عقله غير امور تجارته ، أو بيته ، أو فسقه . والأم مستضعفه ، سلبية ، مقهورة أمام زوجها ، تعمل لحسابه أمام ابنائه ، ولحسابهم امامه . تكاد الخرافة ان تكون هي لباب تصورهما عن عالم الروح والعقل . ثم اشقاء تتوزعهم مشاغل الزواج او المرح - المشروع وغير المشروع - والثرثرة التي بلا نهاية ، والحزن على الاموات .

والعنصر الثوري الوحيد في العائلة فهمي ، استشهد قبل موت الزعيم ، أما كمال ، بطول الثلاثية ، فقد انشغل بقضايا الفكر المجردة بعيدا عن همم الواقع ، او متباعدا عن الاصول الواقعية ، لقضايا الفكرية . " (١)

والسبب الثاني في رأينا ، هو ان سعد زغلول ، مات ، وعائلة عائشة تحتضر ، وقد لمسنا هذا السبب ، في ردة فعل كمال ، "الا" انه في أى حال ، لم يكن يتوقع من كمال ، ردة فعل مختلفة ، ان نجيب محفوظ ، يلتزم له العذر في هذا التبرير " لو في غير هذا الظرف الحزين ما درى كمال ، كيف يتحمل النبأ ، ولكن المصائب اذا تلاقت تحدى بعضها بعضا ، هكذا ماتت جدته في اعقاب

(١) خشبه ، سامي - شخصيات من أدب المقاومة - مجلة الآداب - عدد ٦ ، سنة ١٩٦٨ - ص ١٣

مصرع فهمي فلم تجد لها باكيا • اذن مات سعد : النفى والثورة والحرية والدستور مات صاحبها ، كيف لا يحزن وخير ما في روحه من وحيه وتربيته • (١)

وأما موت الملك فؤاد ، وقد حصل اثناء احداث رواية " السَّكْرِيه " ، - وكان الاخفاد ، قد شبوا وانضموا الى الحركات الفكرية ، والسياسية ، والاجتماعية - فقد احدث املا بمستقبل افضل لمصر • وفي حوار الاخوين ، عبد المنعم ، والاخ المسلم ، واحمد ، الشيوعي ، نلمس ههنا الأمل الواحد برغم تباين العقيدتين :

" احمد - حدثني عن شعورك ••

عبد المنعم - لا ادري ، الموت رهيب ، فما بالك بموت ملك • وكان طريق الجنازة ، مكتظا بالناس بصورة لم اشهد لها من قبل ، انا لم اشهد جنازة سعد زغلول ، حتى استطيع المقارنه بين الجنازتين ، ولكن يبدو لي ان اكثر الناس كان متأثرا على نحو ما ، وبعض النساء بكين ، نحن المصريين قم عاطفيون •

احمد - لكنني اسألك عن شعورك انت ؟

عبد المنعم - لم اكن احبه ، وهذا اعتقنا جميعا ، فأنا لم احزن ، ولكنني لم اسر كذلك • تابعت النعش بعين من لا قلب له ، غير ان فكرة الجبار في النعش أثرت فيّ ، لله الملك جميعا ، هو الحي الباقي فليت الناس يعلمون ، غير انه لو مات الملك قبل ان تتغير الحال السياسية التي كانت قائمة لزغرد كثيرون •• وانت ما شعورك •• ؟؟

احمد - انا لا احب الطغاة ، أيما كانت الحالة السياسية • ثم ان حكاية منظر الموت ، روما نطيقية مريضه ، تمنيت ان يمتد بي العمر حتى ارى العالم وقد خلص من كافة الطغاة •

عبد المنعم - فاروق غلام ، ليس له دهاء ابيه ولا نابه الأزرق ، فاذا سارت الامور سيرا حسنا ، فنجحت المفاوضات ، وعاد الوفد الى الحكم ، فسوف تستقر الامور ، وينقضي عهد المؤامرات • المستقبل حسن فيما يبدو •• (٢)

(١) قصر الشوق - ص ٤٦٤

(٢) السَّكْرِيه - ص ٩٥ ، ٩٦

٧ - الانتحار :

لما كنا نفتقر الى دراسة احصائية عن اسباب الانتحار ، ودوافعه في مجتمعنا العربي ، وخاصة المصري ^(١) ، فقد اعتمدنا مرجعين غربيين ، يعالجان هذا الموضوع في المجتمعات الغربية .

المرجع الأول ، هو كتاب بعنوان " الانتحار " ، " Suicide " لمؤلفه اميل ديركهايم Emile Durkheim . وفيه يورد العالم ثلاث حالات ، تدفع بالإنسان الى الانتحار .

١ - عدم الانتماء - (2) Egoistic Suicide

كان لا ينتمي المنتحر الى عائلة ، أو دين ، أو حزب ، وعادة ما يكون غير متزوج .

٢ - الانتحار الغيري (ضد الاثاني) - (3) Altruistic Suicide

ان شدة الارتباط بالعائلة وغيرها من المؤسسات تدفع الى الانتحار وتدمير النفس حتى لا يخيب امل العائلة او المؤسسة .

٣ - التغيير المفاجي - (4) Anomic Suicide

كالتغيير الاجتماعي والقيمي والاقتصادي السريع . والافلاس المفاجي سبب مباشر .

(١) سألنا الدكتور حليم بركات ، استاذ علم الاجتماع ، عن اسباب الانتحار ودوافعه في مجتمعنا ، فأفادنا بأنه ليست هناك دراسة علمية خاصة وأشار علينا بمراجعة الكتابين اللذين اعتمدناهما في دراستنا .

(2)	Durkheim , Emile	Suicide	- P. 177
(3)	=	=	= - P. 222 - 223
(4)	=	=	= - P. 258

Suicide

والمرجع الثاني ، هو كتاب بعنوان " الانتحار - والبلاد السكندنافية " and Scandinavia

لمؤلفه هيربرت هيندين ، Herbert Hendin . وفيه يقارن الكاتب ، ظاهرة الانتحار في البلدان السكندنافية الثلاث ، السويد ، والدنمارك ، والنرويج . ويخلص الى اعطاء ملامح مميزة للانتحار في كل من هذه البلدان .

١ - في السويد : انتحار سلوكي ، ويسميه الكاتب (1) "Performance " type of Suicide

وينبثق من توقعات سلوكية محددة ، مع كره للنفس نتيجة الاخفاق .

٢ - في الدنمارك : انتحار لفقدان الاعتماد (2) "Dependency loss" type of Suicide

وينبثق من السلبية ، والحساسيه المفرطة للهجر ، وايقاظ مشاعر الذنب عند الآخرين .

٣ - في النرويج : انتحار اخلاقي معنوي (3) "Moral " form of Suicide

وينبثق من تصرف لا اخلاقي عدائي ، ومن شعور قوي بالذنب يثيره هذا التصرف ازاء اشخاص طيبين .

وقد حاولنا ان نجد ترابطا بين حالات الانتحار ، التي تكتمل بها سلسلة ضحايا المجتمع في اعمال نجيب محفوظ ، وبين الحالات الواردة في المرجعين اعلاه ، فتبين لنا ان همم الانسان ومشاكله ، في مجتمع معين ، تكاد تلامس همم ومشاكل الانسان في كل مجتمع ، وان اختلفت المفاهيم ، والاسباب المؤدية الى المواقف . ولناخذ انتحار نفسه ، في رواية " بداية ونهاية " ، مثلا : ان نفسه ، قد اتخذت موقف الانتحار ، وتدمير النفس ، انبثاقا من شدة ارتباطها بالعائلة ، وحرصها على الا يخيّب امل عائلتها ، وهو ما سماه ديركهايم ، بالانتحار الغيري .

(1)	Hendin, Herbert	-	Suicide and Scandinavia	-	P. 146
(2)	=	=	=	=	P. 146
(3)	=	=	=	=	P. 147

وان كانت نفيسه ، قد اتخذت هذا الموقف ، بسبب امتهانيها العهر ، فقد تتخذ انسانة ما ، او انسان ما ، في مجتمع آخر ، هذا الموقف نفسه ، ولكن لسبب آخر ، يختلف باختلاف مفاهيم ذلك المجتمع ، وانتماءاته الاجتماعية ، والأخلاقية ، والدينية .

ويمكننا ان نضع الأسباب التالية ، لانحراف ضحايا الانتحار في قصص نجيب محفوظ :

- ١ - الخبز والجنس - نفيسه ، في " بداية ونهاية " .
- ٢ - التطلع الطبقي - حسنين ، في " بداية ونهاية " .
- ٣ - الانتهازية والتسلق - سرحان البحيري ، في " ميرamar " .
- علام يسرى ، في " بيت سيء السمعة " .
- ٤ - الأفلاس - شداد ، في " الســـــــــــــــــكره " .

صحيح ان نجيب محفوظ ، يكتب عن مجتمع معين ، وعلى وجه الخصوص ، عن الأسرة المصرية المسلمة ، المنتميه الى طبقة البرجوازية الصغيرة ، والتي تحرم تعاليمها الدينية قتل النفس . الا ان شخصياته ، هي شخصيات مكافحه ، تصارع الفقر والذل والحرمان ، تصارع الظلم والأضطهاد ، تصارع القدر والانسان ، وينتهي صراعها غالبا الذي هو صراع فردي ، نهاية مأساويه . حتى عند التحول الاشتراكي ، والمفترض ان تقوده ثورة منظمة ، ظل هناك من يصارع للتسلق ، على مستوى فردي ، فسقط ، كسرحان البحيري ، في رواية " ميرamar " .

ونحن نرى ، انه ليس المجتمع ، بشريحته البرجوازية الصغيرة ، هو الذي يوقع الضحايا ، لكنه المجتمع ، بكل وجوهه وشرائحه : الأقطاعي ، والديكتاتوري ، والبرجوازي ، والاشتراكي . فهناك دائما وجهان للحياة : الخير والشر ، الظلم والعدل ، النجاح والافاق ، المعرفة والجهل ، الجوع والشبع ، الكبت والارتواء ، الى آخر التناقضات التي تخلق الصراع . ولئن غلبت على اعمال نجيب محفوظ ، النهايات المأساويه الحزينه ، فلائه هو - باعترافه - " من جيل غلب عليه الحزن ، لكن الحزن غير السوداويه والتشاؤم " . وشخصياتي محبة للحياة ، ولحياة افضل ، ولكن تصرعها ظروف

خارجة عن ارادتها ، ولأنني انظر الى الموت بعين الانسان الاجتماعي لا الفردى ، فاني ارى ان الموت لا يفعل شيئا بالمجتمع البشرى ، ففي اية لحظة ستجد مجتمعا يعج بالملايين . (١)

(١) شوشه ، فاروق - منع الأتباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب - العدد ٦ ، حزيران سنة ١٩٦٠ - ص ١٨ و ١٩

انتحار نفيسه :

نفيسه ، في رواية " بداية ونهاية " ، هي ضحية الخبز ، والجنس ، والجهل . فهي فتاة لا مال ، ولا جمال ، ولا أب لها : " ومن المؤسف حقا ان المرحوم ، أبى على نفيسه ، ان تواصل تعلمها في المدرسة ، فالتعليم ينفع امثالها ، ممن لا حيلة لهم . " (١)

بلغت نفيسه ، الثالثة والعشرين ، وهي تحسّ بحاجة الى عطف ، وحب ، وحنان . فالواقع ان غريزتها الانثوية ، كانت الشيء الوحيد ، الذى سلم من النقص والضعف ، واستوى ناضجا حارا ، فلم يخل صدرها من عذاب سجين ، ووقفت له تربيتها ، وكرامتها ، واسرتها ، بالمرصاد . فهي بنت ، وهي جاهلة ، ودميمه ، وبيتمه ، والاسرة كلها منشغلة بعد وفاة الوالد في تأمين استمرار حياتها . الأخ الأكبر حسن ، ترك البيت ، ليخفف مصروفه . والاخوان الطالبان ، حرما المصروف وانصرفا الى التحصيل المدرسي . والامّ الارملة ، حملت همم تأمين المعيشه ، بجدية وصرامه ، لم تبقا مجالا عندها لآية عاطفة " حتى الحزن نفسه محرم على امثالنا من الفقراء . " (٢)

لذلك ، وجدت في سلمان ابن البقال ، بعد ان اصبحت تخرج من البيت للخياطة في البيوت ، ولا يتباع الحاجيات الضرورية ، وجدت فيه انسانا - ايا كان - يبدى نحوها ميلا ، ثم انه امكانية زوج . . مع انها كانت تشك في قبول اخوتها به ، فهم جميعا ذوو كبرياء ، لم يقدر الفقرا ان يغلب كبرياءهم ، وتشك في قبوله هو بها ، وتشك انه يفكر فيها حقا .

اخوتها لا يقبلون به ، لأنهم من اسرة موظفين ، وفي مجتمع البرجوازيه الصغيره في مصر ، تحسّ طبقة الموظفين ، تعاليا على اصحاب المهن الحره . وهي مع مشاركتها اخوتها فسيحي احساسهم ، الا انها لدمايتها ، وفقرها ، وحرمانها ، وجدت في سلمان ، الانسان الذى ابدى نحوها ميلا ، ومسردون ان يدري ، جرحها الدامي ، حين اخبرها انها اجمل فتاة رآها في حياته . وجدت فيه امكانية الخلاص .

(١) بداية ونهاية - ص ٢٥

(٢) = = = - ص ٤٤

أما سلمان ، الفتى المحرم ، فقد وجد فيها ، على دمايتها ، انثى تنسب للجنس المحبوب العزيز المال ، فرحب بهذه الفرصة التي تتيح له القليل من الحب . لكنه لم يكن هو نفسه ، يمتلك الثقة والطمانينة التي بثها في روحها ، فقد كان اسير ارادة والده ، وعندما رأى الوالد ان مصلحته كتاجر ، ان يصاهر تاجرا آخر ، لم يستطع سلمان ان يرفض .

ولحاجة نفسه الى المال ، تخطيط هي ، ثياب عروس سلمان .

هذه المفارقات ، في رأى غالي شكرى ، " هي التي تصوغ مأساة نفسه (رضيت بالهم لكن الهم لا يرضى بي) فاذا تراكمت هذه التناقضات واشتد صراعها ، جاءت لحظة ، فشعرت (بأن " بأنها ينقلب رأسا على عقب ، وانها تغوص في اعماق ما لها قرار) ، وهي لحظة التحول الشامل ، لحظة التغير الكيفي العميق في حياة نفسه . الازمة ، الى نفسه المأساة ، فلم تعد فتاة فقيرة دمية ، ابوها ميت فحسب ، بل اضحيت امرأة لا تملك احلام العذارى ، امرأة بلا مستقبل " . شريف " و " كرم " كما تفهم طبقتهما الشرف والكرامة . " (١)

أى ان نفسه ، وصلت الى نقطة اليأس من حياة شريفة كريمه ، يوفرها لها الزواج . ورغم ذلك ، لم تعتزل الحياة ، لأنه في رأى نجيب محفوظ ، كان هناك عامل غريزي اقوى من الشرف والكرامة بمفهومها المجتمعي ، عامل يرد لها كرامتها بمفهومها الانثوى الانساني ، هو عامل الرغبة المشبوهة ، التي تشتعل في دماها ، ولا حيلة لها فيها . " هذه الرغبة وحدها تأبى عليها ان تعتزل الحياة وتتوارى ، بيد انها لم تعترف بها امام شعورها وانكرتها ، وقالت لنفسها انها ترضى الهوان في سبيل النقود ، التي تحس حاجة اسرتها اليها ، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى ، وسرها — ان كان ثمة سرور — ان تبدو لعينيها شهيدة وضحية لليأس والفقر . " (٢)

(١) شكرى ، غالي — المنتهي — ص ١٥٩

(٢) بداية ونهاية — ص ١٦٤

ولذلك ، ومع علم نفسه ، أنّ سلوكها يعدّ جريمة في المجتمع ، استمرت فيه ، لا لحاجة ، وهي التي تركت مهنة الخياطة ، بعد تخرج حسنين ، ولكن لأنها لا تستطيع التخلص من ماضيها ، وتشعر أنها تشد إليه بقوة شيطانيه ، فلا تستطيع منه فككا و " ما الذ الغزل ولو كذب . حال مخزيه ولكنها ترد إليها اعتبارها وكرامتها كأنشى مهيضة الجناح . " (١)

كانت هي تسعى وراء كرامتها ، بعد ان أصبحت الكرامة عقدتها ، فالكرامة هي التي أزمّت نفسه منذ البدايه " لست الا خياطه ، ليست كرامتي التي تعزعلي ولكن كرامتك انت يا اي " (٢) . كانت شيئا ، وليست الآن شيئا على الاطلاق . عدم مخيف وأس قاتل ، فقدت سلطان الإرادة على جسدها ، وروحها ، وعواطفها . عقدة الكرامة شاركت في ازمة نفسه ، وحولتها الى مأساة .

فحين تضبط نفسه ، في بيت تستأجره ست روميه ، وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق ، ويبلغ اخوها الضابط ، حسنين ، تتجسد جريمتها امام ناظرها ، وتحسّ بالخوف والنقص ، وبالرغبة في الموت ، الذي عاشته بعد موت أبيها . " اني ميتة كأبي هو في باب النصر وانا في شبرا " (٣) ولأنها انسانة حزينة ، وكئيبة ، ووهنه ، ويمنعها ضميرها من التعبير عن مشاعرها العدائية ضد الآخرين ، توجه العداة لنفسها ، وتقرر ان تميت نفسها " لقد أجمت . . . اني اعلم هذا . . . ولن أسألك غفرانا لست جديرة به . . لا اريد ان يمسك سوء بسبي ، حتى لو كان السبب هلاكي ، ثم بماذا تجيب اذا سئلت عما دفعك الى قتلي ؟ دعني اقم انا بهذه المهمة فلا يكدر مكدر ولا يدرى احد . " (٤)

ان ارتباط نفسه ، بعائلتها ، الى حد تضحيها بكرامتها ، وهنائها من اجلها ، قد اجاز لها ان تضحي بحياتها ، في سبيل الا تفجع العائلة بسلوكها ، ولا يتأثر مستقبل احد من اخوتها بانحرافها . وهذا ما اطلق عليه " ديمركهايم " اسم الانتحار الغيري ، أي ضد الاثنائي .

(١)	بداية ونهاية	-	ص ١٦٥
(٢)	" = "	-	ص ٧١
(٣)	" = "	-	ص ٤٩
(٤)	" = "	-	ص ٣٦٩

انتحار حسنين :

واذا كانت نفسه ، هي ضحية الخبز والجنس والجهل ، فان حسنين هو ضحية التطلع الطبقي ، والرغبة في تغيير الواقع المخجل . ولم يكن يهتم من تكون ضحيته ، اخته نفسه ، الخياطة ، أخاه حسنا ، الذي احترف البلطجة ، والذي اعتبر حسنين ، حياته فضيحة يجب التستر عليها ، وأخاه حسيننا ، الموظف التعيس في طنطا .

بعد حصوله على البكالوريا ، طمح في دخول المدرسة الحربية ، مدفوعا بنفسه الظمأى الى السيادة ، والقوة ، والمظهر الخلاب . وكان له ما أراد ، بمال اخته الشقيه ، وأخيه البلطجي ، ونفوذ المفتش ، الذي اغرت مظاهر حياته المترفة ، فانفجر في صدره بركان من الطموح ، والسخط ، والتلف ، على متع الحياة النظيفة المحترمة . وكان اخوف ما يخافه ، ان ينحصر في حياة ، حياة حسين ، فيقطع عمره ما بين الدرجتين ، الثامنة والسادسة ، بلا امل ناظر .

وكان كل أمله ، ان يسدل على الماضي ستارا كثيفا ، فبات يخجل من اخيه حسن ، الذي مده بالمال ، ومن اخته الخياطة ، التي بذلت في سبيله كثيرا ، وبات يخجل حتى من قبر والده ، المكشوف بين قبور الصدقة . واصبح التغيير ، هو الحل ، للفرار من الماضي ، وكل ما يربطهم به ، حتى الأصدقاء والجيران . تمنى لو يغمض عينيه ثم يفتحهما ، فلا يجد أثرا للماضي كله ، خـبـيره وشـره ، وفي محاولته الفرار من ماضيه ، وحاضر اخيه حسن ، يتقدم حسنين ، لخطبة البك المفتش " لم تكن فتاة بقدر ما كانت طبقة وحياة . ولعله عرف على ضوء عينيها ، جانبا من نفسه كان غامضا ، وهو انه يؤثر في اعماقه الطموح ، على السعادة والسلامة . " (١)

وكان اخرى بالطموح ، ان يوصله الى السعادة والسلامة ، لولا ان ما بنفسه اكثر من الطموح ، في نفسه تطلع طبقي ، انحراقي ، يفصح عنه نجيب محفوظ ، حين يلتقط من اعماقه ، هذه الكلمات

"أني أكره الفقر وسيرته ، ولا أحب أن أخفض رأسي ، بين أناس مرفوعي الرؤوس ."(١) إذن ، هو لا ينشد سعادته ، في حدود منجزاته ، وقد أصبح ضابطا ، وإنما ينشد الوصول الى طبقة معينة . ومن هنا انحرافه كما يقول غالي شكري " أن كراهيته للفقر تمثل الجانب الشورى ، أما ان يكون الدافع لذلك هو الرغبة في ان ترتفع رأسه بين بقية الرؤوس المرفوعة (أى أبناء الطبقة العليا) فان ذلك يمثل جانب الانحراف ، الذي يؤدى به فيما بعد ، الى نهاية الطريق المسدود . فشورته تنحرف للمسي تطلعا طبقيا ، وتسلفا ، ووصوليه ، ومحاولة ساذجة للصعود الى اعلى ."(٢)

لقد نجح حسنين ، في ان يغير لقب اخته نفسه ، من خياطة ، الى اخت الضابط ، وفي ظنه انه غير واقعها ، وقضى على جانب كبير من اسباب شعوره بالمهانة .

ونجح في تغيير المنزل الذى كانوا يقيمون فيه ، وفي ظنه انه بذلك يمحو الماضي ، وكل ما له علاقة به ، من مقومات تصنعه : المكان ، والزمان ، والناس . ولكنه لم ينجح ، ولم يقدر ، ان يغير واقع اخيه حسن ، البلطجي ، المهرّب ، الذى ود لو يقتله او يقتل نفسه ، حينما كان البوليس يطارد . " بودى لو اقتل ، لن يروح عن صدرى اقل من القتل . . دعيني اقتل نفسي ما دمت لا اجد من اقتله ."(٣) أراد ان يقتل نفسه ، لأنه شعر بأن كرامته تحتضر .

وعقدة الكرامة ، هي المحور الأخلاقي في حياة البرجوازيين الصغار ، فالكرامة ، هي العمل الوحيدة الصالحة ، لأن تكون تعويضا للنقص الاجتماعي والاقتصادي . والكرامة ، هي في الواقع عقدة حسنين ، التي وصلت به الى حد ان يقتل او يقتل . . تحسن كرامته ، من ساعة دفن والده ، فقد كان حريصا على " ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة ."(٤)

(١) بداية ونهاية - ص ٢٣٤
(٢) شكري ، غالي - المنتهى - ص ١٦٧
(٣) بداية ونهاية - ص ٣١
(٤) = = = - ص ١٤

وتحس كرامته ، عندما اعلنت الأم ، أن نفسه ستعمل خياطه ، " لن تكون اختي خياطه ، كلا ولن اكون اخا لخياطه . " (١) وتحس كرامته ، وهو يقف امام اخيه حسن ، يطلب القسطنط الأول لدخوله الحربية " اشتد اشمئزازه وحنقه ، ولعن الحاجة من اعماق قلبه ، في يأس وقهر . هل يستطيع ان يغضب لكرامته حقا . " (٢) وتحس كرامته ، وزملاؤه في المدرسة الحربية ، يهزأون من خطيبته ، " وشعر بكره وامتعاض ، وبجرح عميق في كرامته . " (٣)

وحسب حسنين ، انه استطاع ان يتغلب على كل هذه العقد ، بأيقاف نفسه ، عن عملها كخياطه ، وبتغيير المنزل ، وما يعنيه من ارتباطات بموت الوالد ، والفقر ، والجيران ، وبفسخ خطوبته ، ومحاولة خطبة ابن البيك .

وكان يمكن ان تنتهي عقده مع اخيه حسن ، بفرار هذا الأخير ، باختياره " يجب ان اخفي سأغادر البيت حالما اقدر على المشي ، وربما غادرت القطر كله . " ويتساءل حسنين " هل يمكن ان يحدث هذا قبل ان تقع الواقعة ؟؟ هل يخفي حقا ، فلا تقع عليه عين ولا يعرف له أثر . . . ؟! فليتقدم حيث هو ، يجب ان احيا حياة مطمئنه . " (٤)

الآن أن القدر ، كان اقوى من ارادة التغيير الفرديه ، التي جابه بها حسنين ، حياته . دهمه القدر ، في صورة بوليس ، ينبئه بأن " اخته ، ضبطت في بيت سرى . تلك الفتاة الفقيرة ، الدميمه ، التي دفعت عجلة انهيارها ، محاولتها ذات ليلة ، ان تتجاوز عقدة الكرامة ، مع ابن بقال .

وفي يأسه وزله ، يقرر ان يقتلها . وتشنيه عن قراره ، لانها هي ستقتل نفسها . ورغم أن قرارها زحج عن عاتقه حملا ثقيلًا ، إلا أنه فقد شعورا بالكرامة ، لازمه وهو مصمم على قتلها بنفسه . فاستحال من شخص يندفع وراء الكرامة ، الى آخر ينشد السلامه . وساق اخته الى

(١) بداية ونهاية — ص ٢٤
(٢) — — — ص ٢٤٣
(٣) — — — ص ٣١٤
(٤) — — — ص ٣٦٠

الموت ، وكأنه يسوق هوان الفقر ، وذل الكرامة ، وشقوة الطموح ، وتعاسة التطلع الى اعلى . .
فما كاد النيل يبتلع صرختها امام الموت - آخر مظاهر الحياة - حتى كان يفكر في مصيره . .
انه موقف تتوافر فيه اسباب الانتحار ، فهو قد تصرف مع اخته تصرفا عدائيا لا اجتماعيا ،
فقوى شعوره بالذنب كما يقول هيربرت هندين .^(١) ووجد ان نفسه ، التي طالما تآقت لتدمير
أى عائق يقف في طريقها ، هي العائق ، فدمرها .

لقد أبدى مثل هذه الرغبة ، وهو في موقف يأس . موقف ، أحس فيه ان انسانا مـا ،
يقف في طريق حياة نظيفة ينشدها " بودى لواقتل ، لن يروح عن صدرى اقل من القتل . .
دعيني اقتل نفسي ، ما دمت لا اجد من اقتله . " .^(٢)

يريد ان يقتل . لكنه بحكم مركزه الاجتماعي ، كضابط ، يخشى العواقب ، كذبوع الفضيحة
والعقاب " كيف تنتهي هذه المحنة ؟ وكيف اخرج منها ؟ أيمكن حقا ان يسدل عليها
الستار دون ان تفوح منها رائحة حرية بأن تجعل من هذا العناء كله ، عبثا لا طائل تحته ،
ما اشد عذابي ، كيف اتغلب على هذه التعاسة كلها . اني اسوقها الى الموت وليس الموت
بنهايه ، ولكنه بداية لتعاسة اخرى تنتظرنى في البيت . " .^(٣)

ويعترف حسنين ، لنفسه ، وهو يقف امام جثة اخته ، انه ما وجد في نفسه يوما الا تمنيات
الدمار لمن حوله ، أى ان " رغباته المكبوتة كان لا بد لها من التعدي ، فليحول عدوانه ضد
نفسه ما دام قد عراها " أحق اني الثائر لشرف اسرتنا ؟ اني شر الاسرة جميعا . حقيقة يعرفها
الجميع ، واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسى اقبح ما فيها . رياه لقد قضى عليّ . " .^(٤)

(١) Hendin , Herbert - Suicide and Scandinavia - Page 147

(٢) بداية ونهاية - ص ٣١٠

(٣) = = - ص ٣٨١

(٤) = = - ص ٣٨١

انتحار سرحان البحيري :

في رواية "ميرامار" ، يذهب سرحان البحيري ، الشاب الثوري الاشتراكي ، محاسب شركة الغزل بالأسكندرية ، وعضو مجلس إدارة الشركة المنتخب ديمقراطيا عن الموظفين ، وعضو لجنة الاتحاد الاشتراكي ، ضحية انتهازيته . ان تتركز عقده ، كما يقول احمد محمد عطيه : " في طمعه وتطلعه الطبقي ، وعدم رضاه بمكاسب الثورة ، ومحاولة الحلول محل البرجوازية الكبيرة المنهارة ، واخذ امتيازاتها " . (١)

ومنذ البدء ، يحدد نجيب محفوظ ، التناقض الذي يصور سرحان " يا صاحبي انني بطبعي عدو اعداء الثورة الا تفهم ؟ واني من الموعودين ببركاتنا الا تفهم ؟ " (٢)

هو صديق للثورة ، لا لأن الثورة خير يعم الجميع ، بل لأنها وعدته ببركاتنا ، بعد ان اصبح هو الدولة " كنا وقتذاك اعداء الدولة ٠٠ اجل ٠٠ أما اليوم فنحن الدولة " . (٣)

ولأنه هو الدولة ، ولأنه لا يجد للحياة معنى بلا فيلا ، وسيارة ، وامرأة ، فليعمل على أي شيء ليحصل على الفيلا ، والسيارة ، والمرأة ، ولو كان هذا الشيء ، سرقة الشركة نفسها ، واختلاس اموالها ، فمال الشركة " مال بلا صاحب " . (٤)

ويبدو في موقفه هذا من الحياة ، شبه ما يكون بموقف حسنين ، في رواية " بدايه ونهايه " . حسنين ، اختار الحريه ، ليجعل من الاثاق بالجيش ، سلما يتسلق به الى الطبقة العليا آنذاك ، وسرحان ، اختار الثورة ليجعل من الاشتراكية ، سلما ، يتسلق به الى الطبقة الجديدة ، الوارثة لأمجاد الطبقات القديمة .

(١) عطيه ، احمد محمد - نجيب محفوظ وطريق الثورة - الآداب - العدد ٥ ، أيار ، سنة ١٩٦٧ ،

ص - ١٠
(٢) ميرامار - ص ٢٢٥
(٣) = - ص ٢١١
(٤) = - ص ٢٠٨

وفي تصرفاته اليومية العادية ، المنبثقة عن نشأته الفقيرة ، والمتطلعة صوب الطبقيـه ، تبرير لنهايته المفجعة . هو يطرد المومس من حياته ، بحثا عن حب شريف ، وحين يعثر على زهره ، ويناوش حبها فؤاده ، فان " حزنا عميقا بداخله ، يدفعه الى القول متحسرا " لو كانت من اسرة . . لو كانت على علم او مال " . (١) فهي اذن ، ليست من الطبقة التي تصلح للزواج كما يريد " الزواج مؤسسة اذا لم يرفعني من ناحية الأسرة درجة فما جدواه ؟ واذا لم تكن العروس موظفة على الأقل فكيف افتح بيتا يستحق هذا الاسم " . (٢) تماما كما هجر حسنين ، بهيه ، ليخطب بنت الباشا ، لتؤمن له حياة طبقية أعلى .

لذلك لجأ سرحان ، الى المدرسه الموظفة ، يخطبها . فهي بنت اسرة ، ووالدها يملك عمارة متوسطة بكرموز .

وهو يمثل الثورة الاشتراكية ، بادعائه ، الا " انه دائم الذعر من فكرة مصادرة الثروات . وفي رأى غالي شكرى ، ان " سرحان ، " لم يكن مهتما اهتماما حقيقيا بالسياسة ، رغم نشاطه الموفور فيها ، ولكنه كان مهتما اهتماما جنونيا ، بأن تتم العملية ، وتنتج الصفقة ، ويصبح في غمضة عين ، وبحسبه بسيطه من اثرياء البنوك ، لا زهره ، العاطفه الوحيدة الصادقه ، التي خفق لها قلبه ، ولا الاشتراكية ، التي قفز بها الى مجلس الادارة صباحا ، وملهى الجنفواز ليلا ، بمستطيعين ان يحولوا دون اختياره لهذا الطريق الى الثروة . وهو الطريق المسدود في " بداية ونهاية " ، امام حسنين ، نموذج البرجوازي الصغير المتسلق قبل الثورة ، وهو ايضا ، الطريق المسدود ، في " ميرامار " بعد الثورة ، الطريق المؤدى بالمنتحي اليها هذا النوع من الانتماء ، الى الهزيمة الكاملة ، وليست العين الأخلاقية اليقظة ، هي التي سدت الطريق في وجه سرحان ، وانما الشغرات التي لا نهاية لها قد اوصدت الباب نهائيا . وقعت العملية برمتها

(١) ميرامار - ص ٢٢٤

(٢) - ص ٢٣٨

في شباك الأمن ، وتبصر على سائق السيارة المحملة بالبضاعة . تماما كاختياد نفسه ، الى القسم من بيت الدعارة ، ولم يعد امام سرحان البحيري ، الا ان يؤكد من جديد ، مأساة حسنين .
ذاك ألقى بنفسه في النيل ، وهو يحمل على كتفيه نجم الأنضواء للنظام ، وهذا مزق شريانه ، وهو يحمل على كتفيه كافة علامات الأنضواء للثورة ، من عضوية هيئة التحرير ، الى عضوية لجنة العشرين بالاتحاد الاشتراكي العربي . (١)

ولكنه في الواقع ، لم يكن يؤمن بالثورة ، كحل مثالي ومنصف للواقع الاجتماعي ، والاقتصادي ، والسياسي ، الذي نبت فيه شخصيات نجيب محفوظ ، في " الثلاثيه " و " خان الخليلي " و " ذئاق المدق " و " بدايه ونهايه " و " السراب " . وفي حوار مع طلبه مرزوق ، الرجعي ، لا يندفع الى أقنعه بمزايا الثورة ، وانما يعتبرها مهربا من حلين اسوأ منها .

" سرحان — هل ادلك على عزاء حقيقي ؟

طلبه — ما هو ؟

سرحان — البعض يضيقون بالثورة ، ولكن أى نظام يمكن ان يحل محلها ؟ فكرر قليلا او كثيرا فلن تجده خارجا عن واحد من اثنين فأما الشيوعيون واما الأخوان ، فأيهما تفضل على الثورة . " (٢)

انبثاقا من عدم ايمانه بالثورة ، اعتدى عليها ، سرقها ، لكنه حين اكتشفت سرقة ، رد عدوانه الى نفسه ، لأسباب تتعلق بمركزه الاجتماعي ، خاف الفضيحة واحس بجريمته " اني ارتجف ولا تكاد تحملني قدماى . فكرت لحظة في الهرب ، ولكني عدت — تحت عيني الجرسون — الى المائدة . اليأس يزحف بسرعة مذهلة . وخوف مثل الشيطان . طلبت من البارمان زجاجة واندفعت في الشرب بلا وعي ، وطلبت موسى حلاقة ثم اودعتها جيبي . انفصلت عن الباربيشي — المشقة ثم مضيت نحو الباب الخارجي مترنحا يائسا متعجلا . عبرت الطريق وبودي لو اركض ركضا . . . كنت يائسا . . . يائسا . . . يائسا . . . " (٣)

(١) شكرى ، غالي — نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة — مجلة مواقف — العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩ ،

ص — ١٦٣ — ١٦٤

(٢) ميرامبار — ص ٢٥٩

(٣) — ص ٢٦١

يبدو أن نجيب محفوظ ، يرمز بانتحار سرحان ، الى انتحار فئة من المجتمع ، لا تزال المطامع الفردية الاثنية تسيطرها . لقد انتفى من موت سرحان ، عامل القدر ، وان فسره بعض النقاد ، بأنه ضبط السرقة . وانتفى عامل الصراع لأجل حياة نظيفة شريفة ، كما أرادها عباس الحلو ، وصابر الرحيمي ، وحتى حسنين . . فهذا رجل ، وصل لأن يكون الدولة باعترافه ، ومع هذا سرقها وسرق نفسه ، وخانها فخا ن نفسه . وهكذا حول رغباته العدائية ضد نفسه مباشرة ، بالانتحار .

وقد تفاوت اثر موت سرحان ، بالنسبة لمجتمعه الذى عاش فيه - وهم سكان البنسيون - ، كل حسب ارتباطه بالميت ، ونظرته للحياة ، وموقعه في المجتمع :

ماريانا ، صاحبة البنسيون ، التي تمثل البقية الباقية من ذكريات الاستغلال الاجنبي لمصر ، لا يهمها من موت سرحان شيء " سوى ان يكتشفوا القاتل عاجلا ، وان يكون بعيدا عنا كل البعد ، والا ارى وجه رجل من رجال البوليس " . (١)

وطلبة مرزوق ، الذى يمثل الطبقة الحاكمة قبل الثورة ، والذى يرى أن الثورة لم تصنع شيئا الا أنها سلبت البعض اموالهم ، وسلبت الجميع حريتهم ، يقف نفس موقف ماريانا " كم اتمنى ذلك أيضا " . (٢)

وزهره ، الفتاة الريفية البكر ، التي تجسد الوجه الثورى الاصيل لمصر ، صعدت ، وانهارت تماما في حجرتها ، وقد اغلقت الباب . فلقد احبت سرحان كثيرا ورغبت في الزواج منه ، لكنه خانها . . .

- " ماذا اعددت للمستقبل ؟؟ " -

قالت وهي تنوالى الأرض ما تزال - كالماضي تماما ، حتى احقق ما اريد " . (٢)

- | | | | |
|-----|---------|---|-------|
| (١) | ميرامار | - | ص ٨٢ |
| (٢) | " | - | ص ٨٢ |
| (٣) | " | - | ص ٢٧٢ |

وعامرو جدى ، الصحفي الوفدى القديم ، الذى يشعر بأبوة الروحيه للثورة ، ويتجسد ذلك
في خلع ابوته على زهره ، يهمس في اذنها :

- " ثقي من أن وقتك لن يضيع سدى ، فان من يعرف من لا يصلحون له ، فقد عرف
بطريقة سحرية الصالح المنشود ..

وكعادتي لدى جيشان الصدر ، هرعت الى سورة الرحمن ، فرحت اتلو : الرحمن
علم القرآن ، خلق الانسان .. علمه البيان " (١)

وبهذه الايات ، كما يقول غالى شكرى " يضيء نجيب محفوظ ، طريق الامل وسط الظلمة
الشاملة ، الامل الانساني العام ، والمجرد ، الذى يتجاوز ما هو خاص ومحدد . فالهزيمة المحددة
التي تعيننا ، ليست شيئاً ، اذا قيس بآمال لا نهائية للسماء والارض " (٢)

ومنصور باهي ، الشيوعي المرتد ، المنتفع الثاني من الثورة ، يحاول ان يلصق تهمة قتل
سرحان ، بنفسه . وبالفعل ، ركله وهو ميت ، وأراد ان يقتله ، لولا انه نسي المقص ، اراد أن
يقتله ، لانه في نظره " يستحق القتل لصفات وتصرفات هي مردولة في ذاتها ولكنها ليست
بقاصرة عليه " (٣)

صفات يشترك هو الآخر فيها ، فكأنه اراد ان ينتحر ، بقتل سرحان ..

(١) مرامار - ص ٢٧٩
(٢) شكرى ، غالى - نجيب محفوظ وازمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩
ص ١٦٤
(٣) مرامار - ص ٢٧٧

انتحار علام يسرى :

وينتحر علام يسرى ، في اقصوصة " الختام " من مجموعة " بيت سيء السمعة " ، وهو في ذروة انتصاره العملي ، والاجتماعي : اثراكتشاف احد مروءوسيه ، تزويرا في شهادة ميلاده .

فاكتشاف التزوير ، يعني بالنسبة لعلام يسرى ، احد أمرين : اما ان يقع اسير الموظف ، فيحاول ارضاءه بالتورط في تصرفات طالما عف عنها ، واما ان يرفض تهديد الموظف ، فيفتضح امره .
" وفي الحالين لا يمكن ان تنسى كرامتك " . (١)

ويتعاطف نجيب محفوظ ، منذ بدء الاقصوصة ، مع علام يسرى ، الذي يصفه بأنه " مثال طيب حقا في وسط ملعون ، وذلك الخطأ الذي ارتكبه منذ خمسة وثلاثين عاما ، ينفجر على غير انتظار كلغم منسي . وقد ارتكبه ليقبل في المعهد ، وحتى لا تضع آماله هباء . ولم يكن مغامرا ، ولا مستهترا بالمبادئ ، ولكن اغتاله الضعف والامل . وكان موقفا رهيبا عندما قدم اوراقه : فنظرة مدققة من عين المسجل ، كانت كفيلة بنبذه من المجتمع . وآمن بأن جريمته ، قد دفنت في الملف الى الابد . ولكنه لم ينس انه سيغتال الحكومة في عامين من مدة خدمته ، ولم يرحمه ما قدم من عمل مجد واستقامة ، فعزم على طلب الاشارة على المعاش ، عندما يحل موعده الحقيقي ، الذي لا يعلم به احد سواه . اجل طالما ذكر نفسه بذلك ، ولعل " مرض القلب الذي انتابـــــــــــــــــه منذ اعوام ، كان نتيجة لحدة شعوره بالشوكة الخفيه المنغرزة في ضميره . (٢)

علام يسرى ، لم يقترب جريمة بسبب الفقر ، ولا بسبب التسلق ، ولا بدافع الانتقام من انسان خان مثله . . ان جريمته ، هي احتيال على القانون ، هي التزوير ، حتى لا تضع آماله هباء . وكان ذلك في عهد الشباب المبكر . ومع انه انكب على عمله بأخلاص ، طوال خمسة وثلاثين عاما ،

(١) بيت سيء السمعة - ص ١٤٩

(٢) - - - - - ص ١٤٤

فكان مثال الرجل الكفيّ ، الطيب السمع ، إلا أنه لم يستطع أن يمحو جريمة ، ولو اكتشفت في البدء ، لكنت " كفيلة بنبذه من المجتمع " . ولو اكتشفت وهو في القمه ، بعد أن رقي إلى وكيل وزارة ، وبات يتأهب لتزويج ابنته الوحيدة ، لأصبح في أحد حالين : إما أسيراً ذليلاً لمطالب متسلق انتهازي ، أو رجلاً مفضوحاً بالمجتمع .

وكان عليه لكي يتخلص من هذا الوضع أن يقتل ، أما الموظف وأما نفسه ، ودّمر نفسه وهو يعني قتل الموظف . وفي مونولوج داخلي تتضح رغبته في القتل . يجري المنولوج ، بشكل حديث مع الموظف " أحسب أنك ملكت كل شيء ؟ أنا أقول لا ، فما أنت صانع ؟ أجل نحن في الخلاء حقاً ، كورنيش النيل ، إلا تحب هذا المنظر الخلّاب ؟ لعلك خائف ، رأييت ، كان ينبغي أن أكون أنا الخائف لا أنت اليس كذلك ؟ لا . . . لن يفيدك الصراخ ، مت كحشره . " (١)

وشدّت قبضته على عجلة القيادة بقوة فظيعة . . . ووقع حادث أسيف في طريق الكورنيش . وقال المحزونون : جرى القضاء عليه ، وهو يتربّع سعادتين ، ترقيته ، وزواج كريمته .

انتحار شداد :

يورد نجيب محفوظ نبأ انتحار شداد، اثر افلاسه بأيجاز . وهو لا يتناول الانتحار كحدث مصري - كما في حال نفسه وحسنين - ولكن ليكمل به عناصر موقف نفسي، تأملي، لكمال . ان تداعى في نفس كمال، بلقائه برفيق شبابه المبكر، صور الماضي التي ولت، واحدة تلو اخرى . صورة الحب، متمثلة بعائده . صورة الصداقة، متمثلة بحسين شداد . صورة الحماسة، العارمة، متمثلة بفهمي . . وحتى قهوة محمد عبده، مأوى ذكرياته، ستهدم هي الاخرى، فلا يبقى لها من أثر . ويحيى نبأ انتحار شداد، ليكمل هذا الموقف . الحياة عبث " أهذه هي نهاية الحلم القديم ؟ الأفلاس والانتحار كأنما قضى بأن تؤدبه هذه الأسرة بأدب الأليمة الساقطين . " (١)

ان شداد (٢)، الذي لم يتحمل صدمة افلاسه، بعد ان التهمت البورصة آخر ملجأ في حوزته، فانتحز، قد حطم صورة مثاليه، طالما تاق كمال للوصول اليها : القصر، والحديقة، والكشك، والنعيم . صورة حياة الطبقة العليا، التي رفضت حب كمال . " تصور آل عايده في حياة متواضعة : كحياة هؤلاء الناس حولنا، فهل تمضي بدور يوما بجورب مرفو؟ وهل تتخذ من الترام مركب ؟ أو تنزوح من موظف بمصلحة كذا ؟ ولكن ماذا يهمه من ذلك كله ؟ آه . . لا تغالط نفسك فأنت اليوم حزين، ومهما يكن لعقلك من رأى في الطبقات، وفوارقها، فأنت تشعر من جراء هذا الانقلاب بانهياء مخيف، ويعز عليك ان تسمع بأن "ملك العليا، تتمرغ في التراب . " (٣)

(١) السكريه - ص ٦٣
(٢) انتحار شداد، ينطبق عليه ما اسماه اميل ديركهايم، في كتابه "الانتحار" الـ Anomic Suicide راجع ص ٢٥٨ - ٢٤٤
(٣) السكريه - ص ٦٤

تقاليد الموت :

ذكرنا في المقدمة أن نجيب محفوظ ، يرافق شخصياته مرافقة تفصيلية ، تكاد تصل الى حد المسح الاجتماعي الشامل . ويبلغ به رصده وتسجيله ، الى التعريف بأدق التفاصيل ، وكنا نعرفنا على تقاليد عامه للموت ، عند الطبقة الوسطى ، كالحرص على جنازة لائقة ، وقبر لائق ، وعلى زيارة القرافه ، وتزيينها بالزهور ، وتبادل الهدايا بين الجيران واهل الميت . وفي رواية " خان الخليلي " ، يعدد الكاتب مراسم الدفن ، خطوة خطوه . وقد رأينا ان نسجلها في بحثنا لابرازها وجهها من وجوه احتفالات المجتمع المصري بأحد مظاهر حياته العامه

والخطوات هي : -

- ١ - يغطى الميت حتى الرأس بالغطاء ، قبل غسله وتكفينه .
- ٢ - يبتاع الكفن من حانوت بالخوريه ، والتاجر يقيس القماش ، ويقطعه ، ويلفه ، دون ان يعني له الموت شيئا .
- ٣ - يستخرج تصريح بالدفن ، من مركز الصحة ، والموظف يسأل بلهجة باردة وبعدم اكتراث ، عن اسم الميت ، وعمره ، ومرضه ، وهو يعرف انه بدون هذه الورقة ، لا يمكن ان يخبى الميت في باطن الأرض الى الأبد .
- ٤ - مرتزقة الموت ، يجيئون تباعا ، يحملون ادوات الغسل والنعش ، برآقه عيونهم ، قويمة سواعدهم ، يكتمون وراء عبارات الرثاء المصطنع ، سهر التاجر بالريح المرتقب .
- ٥ - النعش يتهادى على الأعناق ، في حلة الشباب البيضاء ، وتتبادل الايدي والمناكب ، وقد وضع الطربوش عليه .
- ٦ - الأب ، والأخ ، والأقربون ، يسيرون خلف النعش مباشرة ، بوقار يحفظه الايمان .

- ٧ - المقبرة في ثوب قشيب ، فرشت أرضها بالرمل ، واصطفت عند مدخلها الكراسي ،
ودار بها السقاة .
- ٨ - يوضع النعش على الأرض ، ويكشف الغطاء ، ويرفع الميت ملفوفا في الكفن ، وتطبق عليه
الأيدي ، وتغيب به في جوف الأرض . ثم يصعدون بعد قليل من دونه ، ويجثون
عليه التراب ، حتى يستوى بالأرض .
- ٩ - ينضحون الماء عليه ، ويغيب عزيز وتنتهي حياة .
- ١٠ - يعود الأهليون إلى البيت ، البيت كتيب ، وقد كم رياش حجرة الراحل ، واغلق
بابها . (١) .

ملاحظة عامة

يتداخل تأثير الموت في المجتمع ، وتأثره به ، تداخلا يكاد يكون وحدة هارمونية • فهو يأخذ من المجتمع ويعطيه ، يفعل فيه وينفعل به ، يؤثر فيه ويتأثر به • فلموت من جهة ، تأثير سلبي في الحياة الاجتماعية ، بما يخلفه من يتم وكل ، ومن فقدان المعيل ، أو الحبيب • وله تأثير ايجابي ، في حال الوراثة ، والانتفاع من مخلفات الميت ، والخلاص من حالة اجتماعية ، أو نفسية ، أو مالية معينة • ومن جهة ثانية ، يؤثر المجتمع في الموت ، فيدفع اليه ، كما في حالات القتل الانتقامي ، والقتل الإجرامي ، وموت الفتوة ، والقتل السياسي ، وموت العاشق الشاب بمرض خبيث طواه في صدره خشية افتضاح امره في المجتمع ، والانتحار •

نلمح هذا التداخل في معظم اعمال نجيب محفوظ الروائية أو القصصية ، فلموت كل خصائص البطولة : له القبل ، والذروه ، والبعد • والدور الذي يلعبه ، رئيس في مسيرة الحياة ، أو يحدد الطريق لكثير من الشخصيات ، بما يخلف من آثار اقتصادية ، ونفسية ، وعاطفية • كذلك ، فإن الحياة الاجتماعية ، بما يميزها من عادات وتقاليد ، وبما يطبع انسانها من غرائز ، وبما يخالج صدور زعمائها من تطلعات للحرية والاستقلال ، تمثل دورا مهما في احداث الموت ، والموت بدوره ، يمثل دورا مهما في احداث المجتمع • وهكذا تتشابك الحياة والموت ويتداخلان ، ونورد مثالا رواية " بداية ونهاية " : بدأت بالموت ، وظلت احداثها تنمو بتأثير ما خلفه هذا الموت فسي ضحاياه من يتم وفقر ، وما توجه الحياة من كفاح واستمرار • وتتأزم الأحداث بفعل تصارع هذين الجبارين ، حتى تنتهي بأثنين من افراد العائلة الخمسة ، الى الموت • فيكون الموت قد أثر في مسلك الشخصيات الاجتماعية ، والنفسي ، والعاطفي • ويكون هذا المسلك ، قد اودى بحياة هذه الشخصيات • وفي هذه الحالة ، يصح عنوان الرواية مكررا الى ما لا نهاية : " بداية ونهاية " ، ونهاية وبداية •

الفصل الثالث

الأبعاد الميتافيزيقية للموت

- ١ - الترابط بين المشكلة الاجتماعية ، والقضية الميتافيزيقية .
- ٢ - أنواع الموت بالمفهوم الميتافيزيقي :
 - أ - الموت صدفة .
 - ب - الموت القدرى .
 - ج - الأستشهاد من أجل العدالة والحرية .
 - د - الموت فى سبيل المعرفة .

١ - الترابط بين المشكلة الاجتماعية والقضية الميتافيزيقية :

وكما يتشابه الموت والمجتمع ويتلاحمان ، فيفعل فيه ويتفاعل معه ، كذلك تتشابه القضايا الاجتماعية ، والقضايا الميتافيزيقية ، وتتلاحمان .

فحين يحدث الموت ، يحدث في ارضية اجتماعية ، سواء كان موتا بالصدفة ، او بالقتل ، أو بالمرض ، او بالانتحار ، او بالسكتة القلبية . فالميت انسان ، والانسان كائن اجتماعي ، يولد . . يعيش . . ويموت . . وهو في صراعه من اجل الحياة ، يقف امام المشكلة الاجتماعية ، لكنه في الوقت نفسه ، كما يقول احمد عباس صالح ، يقف امام المشكلة الميتافيزيقية ، فهو ان يستولد الطبيعة مقومات حياته المادية ، يفض لغزها . وكأن المشكلتين الاجتماعيتين والميتافيزيقية ، لهما طبيعة واحدة ، او هما مشكلة واحدة . والديانات البدائية ، والديانات الحديثة ، تشترك جميعا في ذلك الخلط بين التنظيم الاجتماعي ، والحل الميتافيزيقي . وما من فكر اجتماعي الا ويضرب في جذور المشكلة الميتافيزيقية . " (١)

وكما ان " الظواهر الطبيعية ، تخضع للمنطق ، كذلك فان " الموت نفسه ، في بعض صورته ، يخضع للمنطق ، فيمكن الاجابة كيف حدث الموت ، اما لماذا حدث ، فذلك سر الاسرار .

رشدى عاكف ، في " خان الخليلي " مثلا ، مات لانه مرض ، واهمل مرضه ، لاسباب اجتماعية : الخوف من الفقر اذا فقد وظيفته بسبب التغيب للاستشفاء ، والخوف من ان يفقد حبيبته ، اذا عرف المجتمع بمرضه . اما لماذا مات رشدى عاكف ، فلا احد يعرف . وفي وقته الالم تخاطب الام الثكلى ربها متسائلة : " ما ضر دنياك لو تركت لي ابني . " (٢) ولكن ههنا السؤال ، يظل بلا جواب .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب - العدد ٦١ ، سنة

١٩٦٦ - ص ١٠٣

(٢) خان الخليلي - ص ٢٦١

وحتى في حالات الموت الفجائي، الذي يحصل عن سكتة قلبية مثلا ، أو عن زلة قدم ،
أو حادث سيارة ، يمكن الأجابة عن السؤال الأول ، الذي هو " كيف " علميا ، واجتماعيا .
أما " لماذا " ، فيظل الجواب لغزا .

يموت الإنسان بالسكتة القلبية ، لمرض في الدم ، أو في الشرايين ، أو في صمامات القلب .
ويموت بزلة قدم ، لأنه أراد ان يتفادى قشرة موز ، أو ولدا يبول . ويموت بحادث سيارة ، لأنه
لم ينتبه وهو يقطع الطريق ، أو لأن " (فرامل) السيارة تقطعت ، أما لماذا هذا الإنسان
دون غيره ، وما يضر " دنياه " لو تركهم لأهملتهم ، وحببياتهم ، وأولادهم ؟ فهذا السر . .

نلقى هذه السببية ، والقدرية الجبرية ، في كل أحداث الموت ، عند نجيب محفوظ . وفي
رأى ادوار خراط " بأن القدرية الغريبة ، العميقة الجذور ، هي أولى قسمات فن نجيب محفوظ ،
قدرية تستخفي راسخة وطيدة ، في قلب الأساس العميق المدفون ، الذي تقم عليه بعد ذلك ،
بنايات محكمة التشييد ، دقيقة التصميم ، لا تغفل عن ادق التفاصيل ، ولا تنسى ان تعنى اخص
العناية بأوهى الروابط ، كما تعنى بأقواها بنية ، وواضحها قواما . وعالم نجيب محفوظ ، عالم
المأساة المتهددة ، والموت المترص ، والأخفاق الذي يصيب أعز الأمانى ، ويحبط أعنف
الشهوات ، والعالم الذي تجرى فيه مصائر الناس ، في كون ما تفتأ تستجوبه فلا يجيب . تتطلب
منه السعادة ، والفهم ، والأستقرار ، والثروة ، والأيمان ، فلا تظفر في الغالب ، إلا بالـبـؤس
والخيره والسقوط . " (١)

كثيرون هم الذين سقطوا صرعى القدر ، أتاهم الموت وهم لا يدرون ، أثناء عبورهم الطريق ،
أو وراء مكاتبهم . وكثيرون الذين ناضلوا من اجل حق عام ، وعدل عام ، ومعرفة عامه ، ثم سقطوا
شهداء هذه المثل اللا مريئه .

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة ، العدد ٧٣ ، سنة ١٩٦٣ - ص ١٧

٢ - أنواع الموت بالمفهوم الميتافيزيقي :

أ - الموت صدفة :

- - القتل غير المتعمد
- - الموت بحادث تافه

القتل غير المتعمد :

- حوادث القتل غير المتعمد ، كثيرة في اعمال نجيب محفوظ ، وله اكثر من شكل .
- أخ يضرب اخاه ، في شجار عادي ، فيسقط احدهما ميتا . رجل يصنع فتوة ، فيهوى صريعا .
- رجل يصوب مسدسه ، ليقتل خصمه ، فتخطئه الرصاصات وتستقر في قلب انسان ، كان يقف بالصدفة ، مكان الهدف .

وفي لحظة ، يصبح الانسان ، مجرما منبوذا . هولم يختر هذا المصير ، ولم يرد . وفي لحظة يموت انسان ، وتختفي حياة .

في رواية " اولاد حارتنا " ، يتشاجر اخوان توأمان ، امضيا حياتهما يرعيان الغنم سوية ، يتشاجران بدافع الخيره ، التي اضرهما ايثار جد هما لأحد هما ، ولم يكنيا باللطم والصفع ، فتبادلا رمي الحجارة ، وأول حجر يرميه " قدرى " ، يصيب " همام " ، في جبهته ، فينكفي على وجهه ، وتكون نهايته . " كأنما القى الى الأرض من مكان مجهول فلم يمت اليها بسبب . " (١) الشاب الواعد المحب انتهى بلحظة وكأنه لم يكن .

لقد اراد قدرى ، - الأخ القوي - ان يهرب اخاه ، وان ينقّس عن غيظه بضربه . لكن الموت غلبه ، " هولم يدعه ، ولم يقصده ، ولكنه يجي " كما يحلولة . " (٢)

(١) اولاد حارتنا - ص ٩٦ - (قدرى وهمام ، هما قابيل وهابيل)

(٢) - - - - - ص ٩٦

وأحسن قدرى - وهو القوى الجبار - بعجزه أمام الموت ، هذه القوة الجبارة التي ان جاءت كما يحلو لها ، فلا راد لها " ما دمت لا أستطيع ان ارد الحياة ، فلا يجوز ان أدعي القوة " . (١)

ونبحث عن السبب الذى أودى بحياة همام ، قضاء وقدر ، فاذا هو اللاعدل ، فلماذا يؤثر اخ بخيرات الجد ، ويحرم اخ ؟ صحيح انه لم يقصد قتله ، ولكن لولا احساس قدرى بالأجحاف ، والظلم ، لما تشاجر مع اخيه ، ولما هجم الموت هجوما غاشما .

والعدل ، في رأى الاب ، ادهم (٢) ، الا تذهب روح الشاب هدرا " قدرى ، لا ينبغي ان تحيا ، هذه هي العدالة " . (٣)

لكنه يكتشف انه أعجز من ان يحقق العدل . فان قتل ابنه أصبح قاتلا ، تطارده العدالة ، وان أبقاه ، فانه يؤوى قاتلا في بيته .

وعلى فكرة العدل ، يبني نجيب محفوظ ، رواية " أولاد حارتنا " : العدل ، والمساواة ، والحق في حياة طيبة . وتزهق ارواح كثيرة في سبيل تحقيق هذه المثل ، وتنتهي الرواية ، ولا ينتهي الصراع . فلكي يتحقق العدل والمساواة ، لا بد من المعرفة ، معرفة الأسرار التي توصل اليهما ، وهذا هو في الواقع ، ما يسعى الإنسان للوصول اليه منذ وجد .

انه يريد عدلا مطلقا ، وفي بحثه عن العدل المطلق ، يبحث عن النظام الكامل للكون . ولكن بحثه ينبثق عن حاجة اجتماعية ، فالحاجة الاجتماعية ، هي التي تدفع الى الحالة الميتافيزيقية ، وهي التي تصور العدل العام ، مثلا أعلى تهون الشهادة في سبيله .

(١) أولاد حارتنا - ص ٩٦

(٢) هو آدم .

(٣) أولاد حارتنا - ص ١٠٥

وفي موقف آخر من رواية "أولاد حارتنا" ، يسقط ميت ثان ، بضربة لم يرد لها ان تكون قاضيه ، فيضربه نبوت من جبل (١) وهو الأعزل الشريف ، يسقط فتوه ميتا . ان جبل قد انتصر لأحد الرجال المظلومين ، أراد ان يحميه من جبروت الطغاة ، وان يرفع الظلم عنه ، فأصبح بضربة نبوت واحده ، قاتلا " يا ويلي ، هل انقلب قاتلا من اول ضربه ؟ ما وددت ان اكون قاتلا قط . " (٢)

ان صناعة الموت ، هي عمل الفتوة الذي قتل ، وما كان بحسبانه ، وهو خارج ليوءدب الخارجين على ارادة الناظر ، انه سيلتقي صدفة بجبل ، وكيل الناظر ، وانه سيموت بضربة نبوت ، من رجل لم يحمل النبوت ، ولم يحترف صناعة الموت .

وأما جبل ، فما مد يده الاّ لينتصر لحق عام ، لم يقتل دفاعا عن نفسه ، ولا لنيل مأرب ، ولا للانتقام . قتل لانه غضب للظلم ، وأراد ان يحقق العدل ، ان مكاسبه المادية الاجتماعية وفيه - وهو وكيل الناظر - لكنه يعافها وهو يبحث عن كرامة قومه وحقهم في حياة جميلة .

وهنا ايضا ، تتشابك المشكلة الاجتماعية ، والمشكلة الميتافيزيقية ، فتصبحان مشكلة واحدة .

ويعززون نجيب محفوظ ، هذا التلاحم ، الى اهتمامه في رواية "أولاد حارتنا" ، بالأفكار والمعاني ، أكثر من اهتمامه بالناس والأشياء " أصبحت اليوم اهتم بما هو وراء الواقع ، وباعثي على الكتابة افكار وانفعالات معينة ، تتجه الى الواقع لتجعله وسيلة للتعبير عنها . " (٣)

هو ان ، يبحث عن مشكلات الإنسان الأساسية ، وليس عن مشكلة انسان معين ، فـ

مازق معين ، وفي مجتمع معين .

(١) جبل هو موسى (نبي اليهود)

(٢) أولاد حارتنا - ص ١٣٩

(٣) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٧٣ ، سنة ١٩٦٣ - ص ٢٧

وفي رواية " اللص والكلاب " ، يموت عامل برئ ، برصاصة مصوبة الى صدر غيره ، سكن بالصدفة في بيت ، كان يسكنه رجل له غريم ، يريد ان يقتص منه . ويقصد الغريم البيت ، وفي ظنه ان غريمه لا يزال فيه . فيكون الضحية ، العامل شعبان حسين ، الذي لا غريم له ، فهو لم يسرق زوجة احد ، ولم يعتد على أموال احد ، ومع هذا قتل . * من انت يا شعبان ؟ انا لا اعرفك وانت لا تعرفني . . هل لك اطفال ؟ هل تصورت يوما ان يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك ؟ هل تصورت ان تقتل بلا سبب ؟ ان تقتل لأن نبويه سليمان تزوجت من عليش سدره ؟ وان تقتل خطأ ولا يقتل عليش ، أو نبويه ، أو رؤوف ، صوابا ؟ وانا القاتل لا افهم شيئا ، ولا الشيخ علي الجنيدى نفسه ، يستطيع ان يفهم . أردت ان احل جانبا من اللغز ، فكشفت عن لغز اغمض . " (١)

هذا اللغز الاغمض ، هو " لماذا " . لماذا ساقطت الصدفة هذا الانسان البرئ ، الى ذاك المكان ، ليلاقى حتفه ؟ وعلى يد رجل لا يعرفه ، ولم يتسبب في اذائه ابدا . وكان سعيد مهران ، القاتل ، لا يجد جوابا عن تساؤلاته الا في دنيا القبور . فهو يتأمل القبور ويهتف " مدينة الصمت والحقيقة ، ملتحى النجاح والغسل ، والقاتل والقتيل ، مجمع اللصوص والشرطه ، حيث يرقدون جنبا الى جنب في سلام ، لأول مرة ولا آخر مرة . " (٢)

التراث الديني يقول : " ان الموت حق " . وما هو نجيب محفوظ ، ينبثق من هذا التراث . فالموت ، هو نهاية المطاف لكل كائن بشرى ، وهو الحقيقة الاكيدة . لكن الموت ، لا يحل المشكلة ، وسيظل الانسان دائما واقفا يتساءل ويأمل ، لقد امل سعيد مهران ، انه سعيد الطمأنينة الى الأحياء والأموات ، لو هو قتل رؤوف علوان ، رمز الخيانة في نظره .

(١) اللص والكلاب - ص ٩٠

(٢) - - - - - ص ٩٢

وستكون الرصاصة ، التي تنطلق من مسدسه الى قلب رؤوف علوان ، احتجاجا داميا مناسباً ،
لضياحه غير المعقول ، على الرغم من تأييد الملايين له " مأساتي الحقيقية انني رغم تأييد الملايين ،
أجدني ملقى في وحدة مظلمة ، بلا نصير . ضياح غير معقول ، ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ،
ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسباً على أى حال ، كي يطمئن الأحياء والاموات ، ولا يفقدون
آخر أمل " . (١)

ومع هذا ، فحين صوّب سعيد مهران ، مسدسه ، الى قلب رؤوف علوان ، قتل بريثا كان
يقف بالصدفة هناك ، البواب المسكين .

وأحسن سعيد ، للحظة ، انه " كالمظاهرات الطبيعية الخارقة " يثير الخوف والأعجاب ،
الآن انه لا يقتل الا الأبرياء .

" أنا لم اقتل خادم رؤوف علوان ، كيف اقتل رجلاً لا اعرفه ، ولا يعرّفني ؟ ان خادم رؤوف
علوان ، قتل ، لانه بكل بساطة خادم رؤوف علوان . وأمس زارتنى روحه ، فتواريت خجلاً ، ولكنه قال
لي ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب " . (٢)

وفي رأى غالي شكرى ، " ان نجيب محفوظ ، لم يستهدف من رصاصات سعيد الطائشة ،
أن يؤكّد العبث والقدرية ، وما اليها من مرادفات المجهول ، بقدر ما اراد ان يؤكّد ، ان صراع
سعيد مهران ، لم يكن صراعاً من اجل البقاء الذاتي . وانما هو صراع ، من أجل بقاء أكبر " . (٣)
ويستشهد على ذلك ، بما قاله سعيد مهران ، وهو يحلم انه يدافع عن نفسه " ان من يقتلني انما
يقتل الملايين ، انا الحلم والأمل وفدية الجبناء ، انا المثل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ،
والقول بأنني مجنون ، ينبغى ان يشمل كافة العاطفيين . فادرسوا أسباب هذه الظاهرة
الجنونية ، واحكموا بما شئتم " . (٤)

(١) اللص والكلاب - ص ١٣٩

(٢) - - - ص ١٤٨

(٣) شكرى ، غالي - المنتقى - ص ٢٧٢

(٤) اللص والكلاب - ص ١٤٨ ، ١٤٩

الموت بحادث تافه :

في موقف عبثي ، هو أقرب ما يكون الى الهزل ، يموت رجل كبير وناجح ، حين زلت قدمه ، وهو يحاول تفادي بول غلام صغير .

ويصف نجيب محفوظ ، الرجل ، بأنه موظف كبير . وبأن " حياته ، سلسلة من المعارك متوجه بالانتصار . في ذلك متعته وكرامته ، في الحكومة او النادي او القرية ، منذ نشأته الاولى وهو مناضل ، كأنه يعيش في حلبة ملاكمة .

وشعاره في الحياة " النضال هو روح الحياة وسرها . أما القيم المعسولة الخرعه ، فهي آفات الحياة . " (١)

حتى المرض ، له في مفهومه ، تفسير خاص " المرض - اذا لم يكن منه بد - فهو ظاهرة تطرأ على الجهاز البشري عقب طعونه في السن . أما الطفل ، فلا يمرض الا " لخلل في الكون . " (٢) هو اذن ، رجل ناجح ، وصحيح الجسم ، ويؤمن بالنضال ، وله عشيقة " أما القيم المعسولة الخرعه فهي آفات الحياة . "

ولأن " نجيب محفوظ ، يؤمن ، بأن " فوق قوة الانسان ، قوة اعظم ، هي هذه القوة اللا مرئية ، والا محسوسة ، الله او القدر ، فقد دبر له ميته ، تقطر سخرية : " عند أول منعطف قبل المقهى ، وعقب نزوله من الطوار مباشرة ، قاصدا بيت عشيقته ، وجد نفسه مدفوعا نحو غلام يبول . فتراجع بسرعة هاتفا " يا ولد يا كلب " . كان الغلام يبول في علانيه استعراضيه ، وشقاوة وشت بسروره بما يفعل ، وقد انطلق البول متلا لئلا تحت اشعة الشمس في هيئة قوس ، والغلام يدفعه بحركاته الذاتية ، الى اقصى مدى يستطيعه . تراجع كريم بك في شبه فزع ، فزلت قدمه ، فهوى على ظهره

(١) بيت سيء السمعة - ص ٢٦٤

(٢) - - - - - ص ٢٦٥

فارتطم مؤخر رأسه بحافة الطوار ، ذعر الغلام فولّى هاربا . ووقف المارة القريبون ليشاهدوا الحدث الغريب ، وهم بين الرثاء والابتناسام ، وهرع اليه بعض ذوى النجدة ليسعفوه . وارتفع من بينهم صوت هاتفا :

- يا لطف الله .. الرجل جثة هامدة . " (١)

وفي اقصوصة " المتهم " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يموت رجل وهو يغني .. الرجل يركب دراجه ، يقطع بها طريق السويس ، ويستعين على قطعها ، بالأمساك بمؤخرة سيارة كبيرة . ويصدف مرور ما عزفي الطريق ، فتضطر السيارة للفرملة ، وتقضي بذلك على راكب الدراجة ، المتعلق بها .

وتنتهي حياته بالراحة ، لتبدأ متاعب انسان آخر ، لا دخل له به ، ولا علاقة له معه . انسان ، صدف ان كان مارا اثناء وقوع الحادثة ، فاتهم بها . والذين اتهموه لا يعرفونه ، ولا ثأر لهم عنده . وكان يمكن ان يكون المتهم ، واحدا من عشرات الألوف الذين يعبرون الطريق . لماذا هـ بالذات ؟ لماذا تصبح حياته رهنا بحياة القتل ، وما هو هذا السر الغامض الذي جعل الفلاحين يتهمونه ؟ ..

ويجيب نجيب محفوظ ، على تساؤلات الرجل ، مستنطقا آياه " لقد تمّ التعارف اليوم ، بيني وبين أشياء ، لم اعرفها قبلا الاّ بالسمع : المصادفة ، القدر ، الحظ ، النيه ، والعمل . كل شيء ، يجب ان يعاد التفكير فيه ، كل شيء ، كشيء وككل . يجب ان نبدأ من الألف ، لنفهم كل شيء ، ولنسيطر على كل شيء . " (٢)

فهو امام ظاهرة ، لم يقدر ان يمنتطقها " ثمة قوة عمياء مجهولة تطحنه ، وكأنها لا تدري . " (٣)

(١) بيت سيء السمعة - ص ٢٦٧

(٢) خمارة القط الأسود - ص ٧٠ و ٧١

(٣) = = = - ص ٦٨

ب - الموت القدرى :

يقول احمد عباس صالح : " ان الموت عند نجيب محفوظ ، هو بديل القدر الاغريقي . ومن هذا البعد ، يتخذ موقفه التراجيدى ، كل عناصره . فالموت يقف بالمرصاد ، امام كل الاحلام ، وامام الرغبة التي لا تياس في تحقيق السعادة . والموت هو الذى يختار ، والاختيار يفصح عن ارادة فيها شيء من القسوة ، ارادة تدبر وتحكم . وحين يحاول الانسان التدخل ، ان يلعب دورا في قضية الموت ، حين ياتي اختيار الانسان للموت ، على اساس من القصاص ، تطيش الرصاصات ، كما طاشت رصاصات سعيد مهران ، في اللص والكلاب . ويختار الموت ابعد الناس عن جدارته .

لكن نجيب محفوظ ، لا يقف موقفا مستسلما من الموت . يتمرد ، ويتحدى ، ويلون بالعلم فترة ، ثم ينتقل بشكل مباشر الى المشكلة الميتافيزيقية . " (١)

والواقع ، ان هناك كثيرا من المواقف ، يعرب فيها نجيب محفوظ ، بلسان شخصياته ، عن تمرد - ولو كان سطحيا - على الموت الذى هو قضاء من الله لا يرد .

في رواية " بداية ونهاية " ، وموقف الاخوين حسن وحسنين ، من موت والدهما . في " السكّريه " ، وموقف عائشة من موت ابنتها . في " خان الخليلى " ، وهتاف ام رشدى عقب موت ابنها . في " السراب " ، وغضبته كامل رؤيه لاذ ، على ارحم الراحمين .

ان عائلة كامل علي ، في رواية " بداية ونهاية " ، تمثل الطبقة الوسطى في المجتمع المصرى . عائلة مسلمة ، مؤمنة ، متعلقة بأهداب الدين ، والقسم بالقبر عندها ، يعني منتهى الصدق .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (مقدمه) - مجلة الكاتب - العدد ٥٧ ،

تقف هذه العائلة ، على لسان بعض أفرادها ، موقفًا متشككًا من العدالة الإلهية : حسن ،
يهتف في حيرة : " انت تقولين أنّ الله لا ينسى عباده ، وأنا عبد من عباده ، فلننظر كيف يذكرنا ؟
لماذا اخذ والدنا ؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب امثالنا من الضحايا " . (١)

وفي حوار بين حسين وحسين ، تبدو بذور الشك واضحة :

- " حسين - أنّ من يستسلم للأقدار ، يشجعها على التماهى في غيائها . .
حسين - هلم نشرع عليها . ودعنا نهتف لتسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط
هور . .
حسين - ألم تغدنا ليسقط هور ؟
حسين - هيهات ان تغدنا الاخرى . .
حسين - من لنا الآن ؟ . .
حسين - الله . .

وزاد الجواب من حنقه ، انه لا يشك في هذا ، ولكنه لا يقنع به .
الله للجميع حقا ، ولكن كم في الدنيا من جاع ومصاب . لم يتنكر يوما لعقيدته ،
ولكنه يتلهف في خوفه ، على سبيل محسوس للطمانينة ، فقال :

- حسين - لقد شاء ان يأخذ والدنا ، ويتركنا بلا معين .
حسين - هو المعين . .
حسين - أنّ هدوءك الكاذب ، لا يجوز عليّ . . انت مطمئن حقا ؟؟
حسين - المؤمن لا تخونه طمانينته . .
حسين - اني مؤمن وقلق معا . .
حسين - هذا من ضعف الايمان . .
حسين - ليكن ، اني اعرف تلاميذ يجاهرون بالشك . .
حسين - أعلم هذا . .
حسين - هم أذكاء ومطلعون . .
حسين - أتحب ان تفعل مثلهم ؟ .

قال في خوف :

حسنين - كلا . . . لست من هواة الاطلاع . " (١)

مؤمن بفضل نشأته الدينية ، وقلق بسبب وضعه الاجتماعي . ولا يقدر ان يتخذ موقفاً ،
ولا ان يبت برأى لأنه ليس مطلعاً ، لأنه لم يعط قدراً كافياً من العلم .

وأما عائشة ، التي تمثل النصف المستسلم من المجتمع المصري ، النصف الذي لا يحلم
بالتمرد على كائن بشري ، فقد تمردت في لحظة ، على القضية المسلم بها في الموروث الديني ،
وهتفت " ما هذا يا ربي ؟ ما هذا الذي تفعله ، لماذا ؟ لماذا ؟ اريد ان اغهم . " (٢)

ومثلها ام رشدي ، السيدة التي لا تقطع فرضاً ، والتي لا تجادل ولا تحاور في امر من
امور الدنيا ، فكيف بأمور الدين . نسمعها امام الموت تخاطب ربها بتمرد العاجز " ما ضر دنياك
لو تركت لي ابني . " (٣)

وأما كامل رؤبه لاذ ، في " السراب " ، فقد كان اعنف في تمرده ، حين صاح بعد موت
زوجته : " ألا يزال ارحم الراحمين ! وداعاً فلن اعبدك بعد اليوم . " (٤)

الآن أن تمرده ، لم يطل . ان سرعان ما انقلب الى رغبة عارمة في الصوفية ، على أثر وفاة
امه ، " لقد خلقت في الواقع متصوفاً ، ولكن اضلّني نوازع الحياة ، وتصورت نفسي في طهر عجيب ،
يستحم جسدى بماء عطر ، وتتسامى روحي في صفاء ونقاء ، فلا مشهد ارنو اليه الا السماء ، ولا
خاطر ينبثق في نفسي ، الا الله . " (٥)

والصوفية ، كالعلم ، هاجس من هواجس نجيب محفوظ . وتعقياً على كلام لنجيب محفوظ ،
يقول فيه : " انني اطلب الحياة حياة انسانية ، علاقات الناس تقوم على الحب ، والتعاون ، حتى

- | | | | |
|-----|--------------|---|-------|
| (١) | بداية ونهاية | - | ص ٣١ |
| (٢) | السكينة | - | ص ١٨٨ |
| (٣) | خان الخليلي | - | ص ٢٦١ |
| (٤) | السراب | - | ص ٣٥٤ |
| (٥) | = | - | ص ٣٦٦ |

يستطيعوا ان يتجهوا الى الله . . . أتطلع الى لون من ألوان الحياة تستطيع ان تطلق عليه
" الصوفية الاشتراكية " حياة هي التطلع الى الله " . يقول ادوار خراط تعقيا : " التصوف ،
على سبيل الاستطراد ، من همم نجيب محفوظ ، التي ما تفتأ تلازمه وتلح عليه ، وما تفتأ تظهر
في عالمه . " (١)

هي محاولات من الفنان ، ليدرك كنه الحياة والموت ، ليكتشف سر الوجود ، ليسهم في
تغيير الإنسان الى الأفضل . وحمل نجيب محفوظ ، الإنسان المصري ، بموروثه الديني العميق ،
وأدخله دنيا العلم . لعله بالعلم ، يصل الى الحقيقة . وكان كمال عبدالجواد ، نموذجا لهذا
الإنسان ، فموقف كمال من الموت ، هو موقف التأمل ، المحاول ان يفلسفه ، الجاهدان يستنبط
منه ، معنى للحياة .

وقد مرت في " الثلاثية " ، ثلاث حالات ، كان الأموات فيها احب الناس الى نفسه .
هذا اذا استثنينا موت اخيه ، فهمي ، وكان كمال لا يزال صغيرا .

عقب موت زوج اخته عائشة ، وولديها ، وقف يقول : " هل ثمة حكمة رفيعة يمكن ان تبرر
القتل بالجملة ؟ " الموت نوع من العبث ، الا ان الايمان بالله ، هو الذي جعل من الموت ،
قضاء وحكمة ، يبعثان على الحيرة . ان الموت يتبع قوانين النكته بدقة ، ولكن كيف لنا ان نضحك ،
ونحن هدف النكته . ولعلك تستطيع ان تلاقيه بالابتسام ، اذا تصديت له دوما بالتأمل الصادق ،
والفهم الصحيح ، والتجرد الاصيل . ذلك هو الانتصار على الحياة والموت معا . (٢)

ومن المسلم به ، ان التأمل الصادق ، والفهم الصحيح ، والتجرد الاصيل ، يعني العلم .

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٢٣ ، سنة ١٩٦٣ - ص ١٨

(٢) قصر الشوق - ص ٤٦٢

وكان هذا هو موقفه ، عند موت أبيه • فقد اتخذ من احتضار أبيه ، زادا لتأمله ، ومادة لمعرفة • ومع احساسه بالخلج ، من نزوع نفسه الى تحليل الموقف - بدافع الايمان - الا انه لم يستطع ، وقد اعتراه شعور بالعجز المطلق ، والياس المطلق ، والتفاهة المطلقة ، الا ان يصل الى نتيجة : " ان كنه هذه الساعة الاخيرة ، سيبقى سرا الى الابد • وان وصفه بالالسم ، أو الفزع ، أو الغيبوبة ، رجم بالغيب • ولكنه على كل حال ، لا ينبغي ان تطول ، انها اجل واخطر من ان تبتذل • " (١)

يريد كمال ، ان يتخذ من الموت ، منطلقا للتفكير في قضايا الحياة ، في اسرار الكون ، وفي معنى الوجود • لذلك نسمعه يقول وامه تحتضر :

- " كثيرون يرون ان من الحكمة ، ان نتخذ من الموت ، ذريعة للتفكير في الموت • والحق انه يجب ان نتخذ من الموت ، ذريعة للتفكير في الحياة • فالنظر الى الحياة ، كمأساة ، لا يخلو من رومانطيكية طفليه ، والاجدر بك أن تنظر اليها في شجاعة ، كدراما ذات نهاية سعيدة ، هي الموت • ثم سائل نفسك ، ألام تضيع حياتك هباء ؟ ان الام تموت ، وقد صنعت بناء كاملا ، فماذا صنعت انت ؟ " (٢)

وسواء لجأ الانسان الى الصوفية ، أو العلم ، في محاولته الياسة ، لفهم سر الموت والحياة ، فان الموت والحياة ، يظلان في استمرار ابدى • بل لعل " نجيب محفوظ ، يلجأ الى الموت ، كعملية انتقاميه ، من انسان ، يحسب نفسه وصل الى ذروة النجاح • وفي هذا ، يقول احمد عباس صالح ، " مشكلة الموت عند نجيب محفوظ ، مشكلة معقدة ، انها ليست عملية طبيعية ، بل اشبه ما تكون بالانتقام • وهي في احسن صورها تبدو غير مفهومه ، وغير منطقيه • وفي قصصه القصيره ، يكشف الموت عن نفسه ، قدرا غاشما احيانا ، غير مفهوم احيانا اخرى ، وقصاصا عادلا ، بعد ان ألفه نجيب محفوظ ، فراح يستعمله استعمالات انسانيه • ولكنه حتى في هذا

(١) السَّكْرِيه - ص ٢٦٥ - ٢٦٦

(٢) = - ص ٢٨٩ و ٢٩١

الاستعمال ، تضطرب يده وهو يؤكّد سلطانه المطلق . " (١)

وفي قصة الختام ، من مجموعة " بيت سي " السمعة " ، يسوق نجيب محفوظ ، الموت ، قصاص للرجل الذي أراد ان يكون مستقيماً ، وان يكفر عن خطأ ارتكبه ، في مطلع حياته .
لقد قدمه لنا وعوفي أوج نجاحه وسعادته ، غداة ترقّيته الى وكيل وزارة ، واستعداد لتزويج ابنته الوحيدة ، من قاض شاب .

وتكون هذه الترقية ، السبب الذي يدفع به الى الانتحار . ان يكتشف موظف صغير ، اثناء مراجعة ملفه لأعداد البيان التمهيدى لتعيينه ، تزويراً في شهادة ميلاده ، ويساومـه ، فأما ان يعلن عن ذلك ، فينفضح امره ، وأما ان يسلك معه - أى الموظف - طريق التسوية .
ان تسلك الموظف الصغير ، الى حجرته ، قد قوّض بنيانه بلطمة واحدة ، مما جعله يتطلع الى فضاء الغرفة ، منقباً في زهول ، عن القوة المدمّرة الساخرة .

هذه القوة المدمرة الساخرة ، هي القدر ، الذى ظلّ يلاحقه ، رغم توبته خمسة وثلاثين عاماً . ورغم عزمه على اصلاح خطئه ، بالاستقالة من الحكومة ، قبل عامين ، من موعد احواله على المعاش .

وفي النهاية ، يلجئ الكاتب ، الى الله " ومن غير الله ، يمكن ان ينتشك من مأزقك الخانق ؟ ودعا ربه طويلاً حتى اغرورقت عيناه . " (٢)

والواقع ، أن خطأ من هذا المستوى ، وسيره من هذا النوع ، لا يدفعان الى الانتحار . وربما اعتبر نجيب محفوظ ، أن الرجل ، قد اكمل رسالته بالوصول الى غاية سعادته ، فاختار له النهاية الطبيعية ، " الموت " .

(١) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ ، الموقف التراجيدى - مجلة الكاتب -

عدد ٥٢ ، سنة ١٩٦٥ - ص ٨١

(٢) بيت سي " السمعة - ص ١٤٨

وفي اقصوصة "الهارب من الأعداء" ، من المجموعة نفسها ، يبرز إيمان نجيب محفوظ ، بالموت ، كقدر لا يرد . تقول الاقصوصة ، أنّ انسانا هرب من حبل المشنقة حين ذهب أوراقه الى المفتي ، ولجأ الى صديق له ، وتخفى عنده ، مدة عام ونصف العام ، اندلعت في نهايتها الحرب ، فأمل الصديق خيرا في الحرب :

" - قلبي يحدثني يا سلامه ، بأنّ الشغل سيضحك عليك .. ليتني استطعت ان اعتمد عليك ..
- صديقك .. واسير شهامتك .. ولكن لا يمكن ان ابرح الخرابة ..
- هل يعرفك أحد في المدينة خلف هذه اللحية ؟؟
- يعرفون الجن ..
- وهل ينقضي عمرك في الخرابة ؟؟
- هي خير من حبل المشنقة يا أبا محمود ..
- سأهريك الى فلسطين ، وستعمل هناك لحسابي .. ما رأيك ؟؟
- الرأي رأيك . " (١)

كان الهارب ، مستعدا ان يعمل أى شيء ، شرط ان تسلم حياته ..
وبالفعل ، تنجح تجارة ابي محمود ، وتزدهر ، لدرجة انه يعتبر الحرب نعمة .
" - يا ولد العم ، ليست الحرب كما يقولون . الحرب نعمة كبرى .. والآنكليز رجال . ولم تعد الزمارة تخيف احدا . " (٢)

وفي الغارة ، يقضى على كليهما . الهارب من الموت ، والمتاجر مع الموت .
والموت عند نجيب محفوظ هو القدر .

(١) بيت سيء السمعة - ص ١٨٤
(٢) - - - - - ص ١٩٠ و ١٩١

في أقصوصة " البارمان " ، من مجموعة " خمارة القط الأسود " ، يأتي الموت ليقضي على
أسطورة الرجل ، الذى يجد لكل شيء في الحياة تفسيراً ، يدخل السعادة الى القلوب . فهو
لا يعترف بالخوف ، ولا بالفقر ، ولا بالعجز والشيخوخة ، ولا بالخيبة في الحب . فكل هذه
السلبيات ، وجوه أيجابية ، يراها هو . حتى الموت ، له معنى خاص عند البارمان :

- " الموت لا يجيء الا مرة واحدة ، وإذا جاء أعقبته سعادة كبرى . .
- ها انت تتحدث عما وراء الموت . .
- من أين أتيت ؟ ألا يشبه الظلام الذى أتيت منه الظلام الذى ستذهب اليه ،
وقد أمكن ان يخرج من الظلام الأول حياة ، فما يمنع من ان تستمر الحياة
في الظلام الثاني ؟ " (١)

وظل " الرجل السعيد ، القوى ، الذى لا يرى من الحياة الا وجهها المشرق ، واقفاً
وراء البار كالتمثال . ولم يصدق الناس أعينهم ، وهم يرونه يتهاوى .
" وهل كان يمكن ان يموت رجل في مثل قوته الا بضربة قاضية ؟ " (٢)

بهذا التساؤل ، ينهي نجيب محفوظ ، الاقصوصة ، مؤكداً ايمانه بالجبرية . " كل
من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام " .

وفي رواية " ثرثرة فوق النيل " ، يسوق القدر رجلاً في الخمسين ، شبه عار ، ليقطع الطريق
في اللحظة التي كانت السيارة منطلقة بأقصى سرعتها ، تحمل جماعة العابثين ، الذين يعتبرون
أنفسهم طبيعيين ، لا يشينهم شيء ، وان الأخلاق التي تدينهم اخلاق ميتة ، مستوحاة من عصر
ميت ، وانهم رؤاد اخلاق جديدة ، صادقة ، لم ينتظمها التشريع بعد .

(١) خمارة القط الأسود - ص ٥٦
(٢) - ص ٥٨

وتصدمه السيارة ، وفجأة تدوى صرخة مروعة ، ويفتح السائق عينيه مرتعدا ، فيرى شبعا أسود يطير في الهواء :

- " شخص ما تحطم
- قتل عشر مرات " (١)

ويقرر الجماعة ، ان يكملوا سيرهم دون ان يساعدوا القتل . وينفذون هذا القرار .
لقد نجوا من المسؤولية .

ويغمض أنيس ، عينيه . ولكنه يرى الشبح الأسود وهو يطير في الهواء ، " ترى أمما
زال يتألم ؟ ألم يعرف لماذا وكيف قتل ؟ أو لماذا وجد ؟ أم انتهى الى الأبد ؟ وهل تمضي
الحياة كأن شيئا لم يكن ؟ " (٢)

وهذا هو السر ، الذي يؤرق الفنان . هو مؤمن بقضاء القدر ، وبأن الموت ، نهاية
كل انسان . ولكن قلقه ، نابع من عملية اختيار القدر ، لماذا هذا الانسان دون ذاك ؟ وهل
يدري الانسان المختار ، انه اختير ، ولأى سبب !! وابعده من ذلك ، أن الفنان ، يريد للانسان ،
ان يعرف لماذا وجد .

ولقد انطق نجيب محفوظ ، أنيس ، بهذه الكلمات - وهو نموذج المثقف في العوامه -
ليجعلها اسئلة منبثقة عن العلم . يريد للعلم ، ان يحل المشكلة الميتافيزيقية . وهذا هو
محور رواية " الشحاذ " ، ورواية " أولاد حارتنا " . وعن اتجاه نجيب محفوظ ، الى العلم ، يقول
غالي شكرى : " لقد احسن نجيب محفوظ ، منذ الوهلة الأولى ، أن الدين ، يشكل ركيزة اساسية
في بناء القيم ، التي نعيش بين جدرانها في الشرق . وعن طريق الدين ، أراد ان يدخل عالمننا
الروحي ، حتى يستطيع - وهو داخل البناء - ان يستبدل هذه الركيزة الكبرى في حياتنا ،
بركيزة اخرى عرفت طريقها الى العالم المتحضر ، منذ زمن بعيد . تلك الركيزة ، هي العلم " (٣)

(١) ثرثرة فوق النيل - ص ١٦٠

(٢) - ص ١٦٣

(٣) شكرى ، غالي - المنتقى - ص ٢٣٠

ج - الأستشهاد من اجل العدالة والحرية :

سئل نجيب محفوظ ، كيف تفسر القلق ؟ قال :

- " ان " جميع فلسفات الانسان ، منذ العصور القديمة حتى هذا العصر ،
رغم تفاوتها في القيمة ، ورغم صعورها وهبوطها ، لم تعط رسالة حقيقية لهذا
الجيل القلق .

وحتى الان ينقسم هذا العالم الى قسمين : قسم يعطي الانسان الحرية ، ويتركه
في غابه . وقسم يعطيه العدالة ، ويسلبه الحرية ، وفي الحالتين يدفع الانسان الثمن غاليا .
اظن لو ان العدالة ، اجتمعت مع الحرية ، في نظام واحد ، تكون المنقذ . وما دام الانسان
يفتقد احدى الحالتين ، فلن يرتاح له بال . " (١)

ويبدو نجيب محفوظ ، منسجما مع هذا الرأي ، في أعماله الروائية والقصصية . فأبطاله
في بحث دائم عن هذين المطلبين ، ولأجلهما يقتلون ويقتلون ، وما وصل احد منهم الى
العشور عليهما ، او تحقيقهما . وتجسد الروايات الثلاث " الطريق " ، و " اللص والكلاب " ،
و " أولاد حارتنا " ، هذا البحث الدؤوب ، عن الحرية ، والعدالة .

فصابر الرحيمي ، في رواية " الطريق " ، أضاع عمره ، وارتكب جرمي قتل ، وحكم عليه
بالاعدام ، وهو يبحث عن أبيه ، ليمنحه الكرامة والحرية والسلام . كانت المشكلة بالنسبة له ، تعني
النجاة بالمعنى الاجتماعي ، والمعنى الفكري معا . فهو ان يبحث عن المطلق ، يبحث عن حل
لمشكلته الاجتماعية ، او هو ان يبحث عن حل للمشكلة الاجتماعية ، يلتقي بالمشكلة الميتافيزيقية .

(١) نجيب محفوظ - الأدب ، الحرية ، الثورة - مجلة مواقف - العدد ١ ، سنة ١٩٦٨

ومشكلته الاجتماعية ، انه يريد كباقي الناس ، ان يكون له أب . فهو رجل بلا مال ، ولا أهل ، ولا عمل ، " ولا قيمة لأشئ عمل يجي " عن غير طريق أبيه " (١) ، هذا الغائب ، الذى يمنح الحرية والكرامة والسلام . هو اذن ، يبحث عن مطلق .

والبحث عن المطلق ، كما يقول احمد عباس صالح ، " هو البحث عن النظام الكامل للكون ، بفرض فهم القوانين التى تسير عليها الحياة الاجتماعية . فان " هذا الفهم ، سيخلق حالة التوازن ، تلك الحالة التى ينشدها نجيب محفوظ ، بجماع نفسه . فالقلق الكامن فى الحياة الاجتماعية ، والذى يغذيه النظام الطبقي ، والنزوع البشرى الى السلطة ، ويحيل اليه الفكر البرجوازي ، باعتباره حقيقة ثابتة أزليه ، هو المحرك الأساسى الى المشكلة الميتافيزيقية . " (٢)

فسعيد مهران ، فى " اللص والكلاب " ، كان ينشد العدل ، وكان ينشد الحرية . فنصب نفسه قاضيا ، يحكم بالموت على من يعتبرهم رمزا للخيانة والعبث . ولما أفلت عlish ، من مخالف التأديب ، هتف سعيد : " نجا بخيانتك ليزيد الخونة الآمنين واحدا ، أما انت يا رؤوف ، فالأمل الباقي فى الآتئ تضع حياتي عبئا ، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة ، لضمنت تأديبك امام الناس جميعا . الناس معي ، عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك ما يعزيني عن الضياع الأبدى . انا روحك التى ضحيت بها ، ولكن ينقصني التنظيم ، على حد تعبيرك . ومأساتي الحقيقية ، انني رغم تأييد الملايين ، اجدني ملقى فى وحدة مظلمة ، بلا نصير . ضياع غير معقول ، ولن تزيل رصاصة منه عدم معقوليته . ولكنها ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أى حال ، كي يطمئن الأحياء والأَمْوات ، ولا يفقدون آخر أمل . " (٣)

(١) الطريق - ص ٨١

(٢) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب ،

العدد ٥٩ - سنة ١٩٦٦ - ص ٧٣

(٣) اللص والكلاب - ص ١٣٦ - ١٣٧

هو في الواقع ، ينشد طمأنينة الأموات والأحياء ، الى العدالة . ورؤوف علوان ، هو رمز العيث ، " فالرصاصة التي تقتله ، تقتل في الوقت نفسه ، العيث . والدنيا بلا اخلاق ، ككون بلا جاذبية . ولست اطمع في اكثر من ان اموت موتا له معنى . " (١)

ولأنّ سعيد ، يحسّ أنّ الملايين عاجزون ، فهم ليسوا احرارا ، لأنّ " المسدس ربهم الاعلى " ، فانه لا يأمل منهم النجاة ، رغم انهم يعطفون عليه . لكن عالفهم ، عطوف صامت ، عاجز ، كأمني الموتى .

هو يمثل الحلم ، في الحرية والعدالة " انا الحلم والامل وفدية الجبناء . وانما المثل والعزاء والدمع الذي يفضح صاحبه . وانّ من يقتلني ، يقتل الملايين . " (٢)

الملايين ، الذين ينشدون العدالة الكونية ، والحرية المطلقة . .

وفي رواية " أولاد حارتنا " ، يموت رفاعة (٣) ، شهيد ايمانه ، بأنّ السعادة من حق الجميع ، وانه يجب ان يخيم الحب والسلام ، على جميع الناس . ولكن " كيف للحب والسلام ، ان يعيشا بين الفقر ونباييت الفتوات . " (٤)

والفقر ، يعني اللا عدالة . وأما نباييت الفتوات ، فتعني اللا حرية .

ولم يسلك رفاعة ، سبيل القوة ، لتطهير الحارة . فقد كان يؤمن بأنّ الشر ، يهزم بالطيب الجميل . وانبثق ايمانه عن واقع حارته ، التي لا يعوزها الجبروت ، ورغم ذلك تعيش في ذل ، وفقر ، وخوف ، " كل ساعة من نهار أوليل ، ترى أناسا يضربون ويجرحون ويقتلون ، حتى النساء ، ينشبن الأظافر حتى تسيل الدماء ، ولكن اين العدل ؟ الحق أنّ حارتنا فسي حاجة الى الرحمة . " (٥)

-
- | | | |
|-----|-----------------------|-------|
| (١) | اللس والكلاب | ص ١٤٢ |
| (٢) | المسدد | ص ١٤٨ |
| (٣) | رفاعة هو السيد المسدد | |
| (٤) | أولاد حارتنا | ص ٢٣٠ |
| (٥) | | ص ٢٤٥ |

والرحمة ، تبدأ من قلب الإنسان . وهكذا ركز رفاعة ، اهتمامه بالنفوس ، وليس بالوقف .
فالسعادة شيء ، غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الحشيش . السعادة ، هي ان تطرد الحفريات
من نفسك بالمحبة ، فاذا تخلص الانسان من عفريته ، تطهر من الحقد ، والطمع ، والكراهية ،
وسائر الشرور .

والواقع ان موقف رفاعة ، هو أكثر المواقف ميثاقيزيقيه . فهو ينشد المطلق ، دون اللجوء
الى الأساليب الدنيوية . فلا قتل ، ولا سرقة ، ولا عريضة ، ولا خداع . كان يريد ان يبرهن ،
ان " السعادة ليست في الجاه والقوة ، وان غاية الانسان من وجوده على الأرض ، هي شفاء
الآخرين ، وليس قتلهم " ولخير للانسان ان يُقتل من يقتل . " (١) . وان المسالمة ، لا تعني
الضعف . " فمصارعة العفارية ، أشق عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء ، او منازل
الفتوات . " (٢)

كان رفاعة ، يحارب جانب الشرفي الانسان . وهي معركة تتطلب شجاعة اسمى ، وقوة
أشد ، لأنها معركة مع اللا محسوس ، واللامرئي . فليس الشر انسانا ، لتقتله وتخلص منه ،
واذا لم يستطع الانسان التغلب عليه ، فهو لا محالة مهلكه . ولكن دعوة رفاعة ، في عالم مليء
بالمظالم والكبت ، لم تنجّه من قدره ، حيث يدفع الى الموت ، بأيدي الجلادين ، الذين
أحاطوا به " فسار مستسلما للمقادير . . وغشيه الظلام ، والحيرة ، والشر ، الذي يتهدده .
فلم يكد يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان . . وران عليه حزن شامل عميق ، فغطى حتى على
مخاوفه ، وخيّل اليه ان ذلك الظلام ، سيمسي صفة الدنيا الملازمة . " (٣)

(١) أولاد حارتنا - ص ٢٨٩
(٢) - - - - - ص ٢٩٠
(٣) - - - - - ص ٢٩٤

ودفع رفاعه ، حياته ، ثمننا للحرية والعدالة ، وهو ينادى من اعماقه : " يا جبلاوى . " .
ومن بعد رفاعه ، دفع الكثيرون حياتهم ثمننا . قام قاسم ، يطالب بالحرية والعدالة .
فالجبلأوى ، أخبره ، ان " الوقف للجميع على قدم المساواة ، وان الفتونه شر . وهو يريد ان يمحى
الفقر ، والقذارة ، والتسول ، والطغيان . ولا مطلب له من الناظر ، الا العدل .

لكن قاسم ، يوقن بعد ان يقتل أحد رجاله ، ان تحقيق الحرية ، والعدالة ، لا تكون
الا بالقوة " لن نظهر حارتنا من الفتونه الا بالقوة ، ولن نحقق شروط الوقف الا بالقوة ،
ولن يسود العدل والرحمة والسلام الا بالقوة ، وستكون قوتنا أول قوة عادلة ، غير باغية . " (١)

ويتصارع المطالبون بالعدالة والحرية ، مع مقتصبيها . الفريق الأول ، يريد هــا
للجميع " نحن لا نفرق بين حي وحي ، فالحارة حارتنا ، والوقف للجميع . بذلك تتحقق
شروط الوقف ، نحن نطلب العدل . " (٢) والفريق الثاني يعتبر العدل ، كلمة السر التي
يستعملها الفريق الأول ، اذا اعتزم النهب والسرقه . انه لا يعتبره اصلا ذا حق فـي
وقف الجد " ليس فيكم من يعرف أباه ، ولكنكم بكل وقاحة تقولون جدنا . يا لصـوص ،
يا جرابيع ، يا سفلة . " (٣)

ويتغلب الفريق الأول في النهاية ، بعد معارك داميه ، سقط فيها شهداء كثيرون .
ويتسلم قاسم الوقف ، ويعلن : " هنا يقيم الجبلأوى جدنا جميعا ، لا تميز في الانتساب اليه
بين حي وحي ، او فرد وفرد ، او رجل وامرأة . ذهب الناظر الى غير رجعة ، واختفى الفتوات .
لن تؤدوا أتاوة لجبار ، او تخضعوا لعريد متوحش ، فتمضي حياتكم في سلام ، ورحمة ،
ومحبة . وببذكم أنتم ، الا يعود الحال كما كان . راقبوا ناظركم ، فاذا خان اعزلـوه ،

(١) أولاد حارتنا - ص ٣٨٨
(٢) - - - - - ص ٣٧٨
(٣) - - - - - ص ٣٧٩

وانذا نزع احدكم الى القوة أضربوه ، وانذا ادعى فرد أوحى سيادة أدبوه ، بهذا وحده ،
تضمنون الاّ ينقلب الحال الى ما كان ، وورينا معكم . " (١)

لكن الوصول الى العدل المطلق ، والحرية المطلقة ، في عالم يعيش فيه الإنسان ،
معناه العالم الكامل . ولما لم يتحقق هذا العالم في أيّ عصر من العصور رغم تطوره ،
ولما كان نجيب محفوظ ، يؤمن بأرادة الحياة في التطور ، وبالثورة الأبدية ، فانه سيظل
يبحث عنهما عن طريق التصوف حيناً ، وعن طريق العلم حيناً آخر . وسيدفع أناس كثيرون ،
حياتهم ، ثمناً لهذه المعرفة .

وسيظل كفنان ، يبحث عن الحقيقة المطلقة ، لأنه يعتقد " أن الفن زعم لنفسه
أحياناً ، البحث عن الأسرار العليا في الكون . " (٢)

(١) أولاد حارتنا - ص ٤٤٢

(٢) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - عدد ٦ ، سنة
١٩٦٦ - ص ٩٢

د - الموت في سبيل المعرفة :

يقول نجيب محفوظ : " أنا اعتقد انه لم يوجد زمن ، تسلطن فيه العلم على عرشه ، كزماننا هذا . فالعلم في نظري خير خالص ، ولا يعلق به الشر إلا من نوايا الإنسان . وأنا لا أغفل عن هجوم بعض الفلاسفة والأدباء على العلم ، لكن الهجوم يجب أن ينصب على السلوك الاجتماعي ، أو السياسي ، أو الفردي للإنسان ، لا على العلم نفسه .

وأنا اعتقد ان الفن ، زعم لنفسه أحيانا ، البحث عن الأسرار العليا في الكون . نجد هذا في كثير من الشعر الرومانسي ، والرمزي ، والأدب الفلسفي ، قديما وحديثا . (١) وانبثاقا من هذا الإيمان بالعلم والفن ، أطلق عرفة (٢) في " أولاد حارتنا " ، ليجتنب عن سر الوجود ، عن طريق العلم . وأطلق عمر الحمزاوي ، في " الشحاذ " ، ليجتنب عن هذا السر ، عن طريق الفن .

وان كان عرفة ، قد دفع حياته المادية ثمنا لهذا البحث ، فإن الحمزاوي ، قد دفع حياته المعنوية . هولم يمت جسدا ، ولكنه مات ارادة وعملا . ربما لأن الحمزاوي ، لم يصل به التشوف الى حد الجريمة ، في حين اقترب عرفة الجريمة ، رغم أن شعاره الذي رفعه يوم جاء الحارة : " أنا ساحر في كل ما فيه فائدة للناس ، أما القتل فله أناس آخرون . " (٣)

عرفه الساحر ، الذي يستخرج مادة مفيدة من مواد قذرة ، والذي يشعر بلذة حين يأتمر الشفاء بأمره ، " ظل يتشوف للاتصال بالقوى المجهولة وامتلاكها لو استطاع . " (٤) هذا السحر ، هو العلم . وهو شيء عجيب حقا ، لا حد لقوته ، ولا يدري احد اين يقف .

(١) نجيب محفوظ - ملاحظات على المشكلة الميتافيزيقية - مجلة الكاتب - العدد ٦٠ ، سنة ١٩٦٦

- ص ٩٢

(٢) عرفة هو العلم .

(٣) أولاد حارتنا - ص ٤٥٧

(٤) - ص ٤٦١

وقد تبدوا النبأيت نفسها ، لمن يملكه ، لعب أطفال . لذلك فإن عرفه ، يدعو اصدقاءه ليتعلموا هذا السحر ، فالحارة يحكمها الفتوات ، رغم ما يروون عن عهود جبل ، ورفاعه ، وقاسم . لقد أصبح هؤلاء ذكريات " ونحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب . " (١)

والقوة ، هي هذه الزجاجة التي يصنعها عرفه ، مع مساعده حنش ، في المنور المظلم . زجاجة معبأة ، ومحكمة الاغلاق ، ولا تجرب الا في الخلا ، وفيها القضاء على الفتوات ، هؤلاء الذين لم يقدر عليهم أحد .

فإذا كان الجبلاوى نفسه ، وهو الجد الأكبر وصاحب الوقف ، ملتزما الصمت والاختفاء ، ووصاياه مهملة ، وأمواله مضيعة ، فمن يقتض منهم ؟ (٢)

وقرر عرفه ، بسحره ، ان يكون هو المقتض . فليقتض العلم ، ولينشر العدالة المطلقة ، فأما أمن للجميع ، او لا امن لأحد " (٣) . وأكثر ، فإن سحر عرفه ، بعد ان يتمكن من القضاء على الفتوات ، سيشيد المباني ، ويوفر الرزق ، لكافة اولاد الحارة .

ولكن عرفه ، يريد ان ينتشر سحره . ولن ينتشر " الا " اذا استغنى اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر " (٤) لذلك يقرر ان يذهب الى بيت الجبلاوى ، ليحصل من هناك على كتاب السحر الأول . . سرقة الجبلاوى ، الذي ضن به حتى على ابنه .

ورغم توسلات زوجته ، يصر عرفه ، على الذهاب الى بيت الجبلاوى " لم يعد لي من هم في الدنيا الا البيت الكبير ، وليس غريبا على مجهول الأب ، ان يتطلع بكل قوته الى جده . وحجرتي الخلفيه ، علمتني الا " أو من بشيء الا اذا رأيته بعيني ، وحجرتي بيدي . فلا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد اجد القوة التي انشدها ، وقد لا اجد شيئا على الاطلاق .

-
- | | | | |
|-----|--------------|---|-------|
| (١) | أولاد حارثنا | - | ص ٤٦٨ |
| (٢) | " | - | ص ٤٧٥ |
| (٣) | " | - | ص ٤٨٢ |
| (٤) | " | - | ص ٤٨٤ |

ولكنني سأبلغ برا هو على أى حال ، خير من الحيرة التي أكابدها . ولست أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبل ، ان يبقى في وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعة ، ان يصير نجار الحارة الأول ، وكان في وسع قاسم ، ان يهنا بقمروأملاكها ، وان يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر . (١)

والطريق الآخر ، هو البحث عن المطلق . هو الانعتاق من الذات ، والاتحاد بالكل ، في محاولة لاكتشاف أسرار الكون ، وتحقيق الحرية ، والعدالة ، والسلام ، للمجتمع البشرى . وعرفه نفسه ، لم يقصد بيت الجبلاوى ، ويغامر بحياته ، إلا ليحصل على سر قوته . لكنه بدلا من ان يحصل على السر ، أصبح قاتلا . " فعندما رأى العجوز يرقد بين الخيوبة ، وبين النعم واليقظة ، دفعته حركة غير ارادية ، ولا شعورية ، الى الانقضاض عليه ، وخنقه . وممرت الثواني وهو في جحيم من العذاب الصامت ، وشعر بقواه تخور ، وبأن الزمن بات اثقل ممن الذنوب ، وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها ، جاء وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرما . " (٢)

والواقع ، ان دافع القتل عند عرفه ، ليس مبررا ، ولا هو ممهّد له ، فكريا ونفسيا . إلا اذا اعتبرنا ان الجبلاوى ، لالتزامه الصمت والاختفاء ، وبالتالي السلبيه ، لم يعد قادرا ان يحقق العدالة ، والحرية ، والكرامة لأحفاده ، فلا لزوم لوجوده اذا . غير ان مثل هذا الفرض ، لم يرد في اقوال وتصرفات عرفه ، الذى " قتل رجلا لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سببا . " (٣)

ويرى احمد عباس صالح " ان عرفه قتل الجبلاوى - ولم يكن على عداء معه - لانه كان يعتبره خرافة سلبية ، تستعين بها السلطة لتسم الناس كل انواع المظالم . اذن فقتل الجبلاوى ، كان لهذه الخرافة ، وابطال استعمالها . " (٤)

(١) أولاد حارتنا - ص ٤٨٧
(٢) = = ص ٤٩٣ و ٤٩٤
(٣) = = ص ٤٩٤
(٤) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب - عدد ٦١ ، سنة ١٩٦٦ - ص ١٠٦

وقد يصح هذا التفسير ، بالنظر لما ازمع عرفه ، القيام به بعد موت الجبلاوى . وتقول الحكاية ، - ان عرفه قد قتل خادم الجبلاوى ، وان الجبلاوى لم يستطع تحمل الصدمة فمات تأثرا - ان عرفه ، وقد تجرع الالم ، يفكر في معجزة : " ان تعود الحياة الى الجبلاوى .. ان كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من احفاده الى العمل حتى الموت ، موة اقوى من كلماته ، انه يوجب على الابن الطيب ان يفعل كل شيء . ان يحل محله ، ان يكونه . " (١)

يعني ان يحل العلم ، محل الخرافه . لكن العلم ، لم يقدر ان يوصله لأن يكون الجبلاوى ، لأن الناظر اشتري علمه ، بالحياة المرفهه ، التي منحها اياها . ولأن علمه ، استطاع ان يحيل برودة الشيخوخة حرارة ، ولكنه لم يستطع ان يدفع الموت . . .

وبما سألنا الناظر :

" لماذا نموت يا عرفه ؟

- كلنا اموات وابناء اموات ، ليظل عمرك يا سيدى ..
- طال او قصر ، فالنهايه هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان ..
- لا تدع الافكار تعكر صفوك ..
- انها لا تفارقني ، الموت .. الموت .. دائما الموت .. يجي في اية لحظة ، ولا تفه الأسباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، اين الجبلاوى ؟ اين الذين تتغنى بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضاء ما كان ينبغي ان يكون ..
- المهم ان تكون الحياة كما ينبغي ..
- الحياة كما ينبغي واحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده الاقراص ، ولكن ما جدوى ذلك كله ، والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف انساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعه .
- لولا حسد المحرومين من حولنا ، لتغير مذاق الحياة في افواهنا ..
- قول بالعجائز أجدد ! هبنا استطعنا ان نرفع حياة اهل حارتنا الى مستوى حياتنا ، فهل يقلع الموت عن اصطيادنا ؟

- الموت يكثر حيث يكثر الفقر ، والتعاسة ، وسوء الحال ..
- وحين لا يوجد منها شيء يا احقق ؟
- نعم ، لأنه معد مثل بعض الأمراض ..
- هذا اغرب رأى تدافع به عن عجزك ..
- نحن لا ندرى عنه شيئاً ، فلعله ان يكون كذلك ، واذا حسنت احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة ، وشعر كل سعيد ، بضرورة مكافحته حرصاً على الحياة المتاحة .
- ولن يجدى ذلك فتيلاً ..
- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموت الموت . وبذلك تقتل الموت . " (١)

لكن عرفه ، الذى اراد ان يكون الجبلاوى ، وان يقتل الموت ، مات كأي انسان مجرم ، مقهور . مات بأيدي رجال الناظر ، وهو يهيم بالهرب بكراسه السحريه ، بعد ان ابلغته خادمة الجبلاوى ، ان الجبلاوى ، مات ، وهو راض عنه .

وحشر عرفه وزوجه ، في جوالين ، حملهما رجال الناظر الى الخلاء ، للفتك بهما .
" يا لهذه الدقائق الاخيرة من الحياة المشحونة بأفزع الآلام : حتى السحر ، لا يستطيع ان يجد لهذا المأزق الخانق مخرجاً . لم يعد له من امل في الراحة الا بالموت ، فليس ثمة الا الظلام ، وليس وراء الظلام الا الموت . وخوفاً من هذا الموت انطوى تحت جناح الناظر ، فخر كل شيء ، وجاء الموت . الموت الذى يقتل الحياة بالخوف ، حتى قبل ان يجيء . لورد الى الحياة لصاح بكل رجل . لا تخف . . . الخوف لا يمنع من الموت . . . ولكنه يمنع من الحياة . . . ولستم يا اهل حارتنا احياء ، ولن تتاح لكم الحياة ، ما دتم تخافون الموت . " (٢)

(١) أولاد حارتنا - ص ٥٣٣ - ٥٣٥

(٢) - - - ص ٥٤٦

وفي هذه الصيحة ، دعوة الى المقاومة ، الى الثورة الأبدية ، التي نادى بها نجيب محفوظ ، على لسان احمد شوكت ، في " الثلاثية " ، " الواجب الانساني العام ، هو الثورة الأبدية ، وما ذلك الا العمل الدائب على تحقيق ارادة الحياة ، ممثلة في تطورها نحو المثل الأعلى . " (١)

وعلى ذلك ، تنتهي رواية " أولاد حارتنا " ، نهاية مؤلمة بحياة أفضل . ان أن شبابا كثيرين انضموا لحنش ، الذي هرب بكراسة الأسرار ، ليتعلموا السحر منه ، استعدادا لليم الخلاص الموعود . لذلك " تحمل الناس البغي في جلد ، ولاذوا بالصبر ، واستمسكوا بالأمل . وكانوا كلما اضر بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار . ولنرين في حارتنا مصرع الطغيان ، ومشرق النور والعجائب . " (٢)

لقد حلم نجيب محفوظ ، بمدينة فاضلة يحققها العلم . لكن العلم ، كما يقول احمد عباس صالح ، " لم يحل المشكلة ، وما زال على الفكران يجد صيغة مقبولة تتفق مع المفاهيم العلمية ، ومع الظروف الحضارية ، التي تعيشها المجتمعات الانسانية . ومن هنا ، كان ظهور المشكلة الميتافيزيقية وحلولها المختلفة ، اما انكارا ، واما اثباتا ، واما تخليا . ولم تعد المشكلة عملية عقلية ، بل حاجة اجتماعية ، لأن البحث عن العدل الاجتماعي ، صار يلتقي بالبحث عن المشكلة الاجتماعية ، بل ان هذه المشكلة الأخيرة ، هي التي تدفع الى المشكلة الأولى . واختلاط المشكلتين ، هو ازمة المجتمع البشرى في هذا العصر .

وبحث نجيب محفوظ في المشكلة الميتافيزيقية ، مفروض عليه فرضا ، بحكم الظروف الاجتماعية والحضارية التي يجتازها العصر . " (٣)

(١) السـُـرُيـُـه - ص ٣٩٢

(٢) أولاد حارتنا - ص ٥٥٢

(٣) صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ (المشكلة الميتافيزيقية) - مجلة الكاتب ، العدد ٥٩ ، سنة ١٩٦٦ - ص ٧٤

وأقصوصة " تحت المظلة " ، التي كتبها نجيب محفوظ ، بعد عشر سنوات من رواية " أولاد حارتنا " ، أتت تثبت أن العلم لم يتوصل بعد لحل المشكلة ، ففي هذه الأقصوصة تتلاطم كل القيم والمفاهيم الانسانية ، عبر أحداث لا معقولة ، تحصل امام اناس ينتظرون الباص ، تحت المظلة الواقية من المطر . وهذه هي الأحداث .

- رجل وامرأة ، يمارسان الحب فوق جثة رجل ، قتل امامهم في حادث تصادم سيارتين .

- قوافل من البدو والخواجات ، تؤم المكان ، وتتصرف تصرفات طبيعية ، غير مبالية بالرقص او الحب او الموت او المطر .

- عمال يشيدون قبرا ، ويضعون فيه جثث موتى الاضطدام ، ومعها العاشقين اللذين لم يكفّا عن ممارسة الحب ، فهما لا ينفصلان .

- رجل يلبس ثوب القضاء ، يقف فوق القبر ، ويتلو نصا لا يسمع منه شيء .

- يظهر رجل ضخم ، يحسبونه مخرج سينما ، ويأمر الجميع ان يستمروا بلا خطأ ، والا اضطروا لاعادة كل شيء من البدء .

- رأس آدمي يتدحرج امامهم ، والرجل يهتف براغو ، بينما هم تحت المظلة يصرخون فزعا . والرجل يطلب من امرأة ورجل يمارسان الحب ، ان يغيّرا الوضع " حذار من الملل " .

- الرجل الذي حسبوه مخرجا ، اصبح مطاردا ، بعد ان دخل الشارع رجال ذوو هيئة رسميه . ثم اختفوا جميعا .

وحين يسأل الناس المنتظرون تحت المظلة ، الشاويش ، عما جرى ، يطلب بطاقتهم ، ويحقق معهم عن سبب اجتماعهم . وحين يجيبون ان احدا منهم لا يعرف الاخر ، يصرخ " كذبة

لم تعد تجدى " . ويسدد بندقيته نحوهم ، ويطلق النار بسرعة واحكام ، فيسقطون واحدا في أثر الآخر جثثا هامة ، الأجساد تحت المظلة ، والرؤوس على الطوار تحت المطر . (١)

وفي اعتقادنا ، ان نجيب محفوظ ، يرمز في هذه الاقصوة ، الى التعقيد الذي يسود العالم ، حتى اذا ما وقف احدهم يحاول فهمه ، سقط صريعا .

وهو بجمعه بين المتناقضات : البدو والخواجات ، الحب والموت ، الرقص وحفر القبور ، الأوامر والمطاردة ، انما يجمع مشكلات العالم كلها . ثم انه يقتل من سألوا كيف ؟ ولماذا ؟ انما يرمز الى ان الانسان ، سيظل يدفع حياته ثمنا للمعرفة .

وفي رأى غالي شكرى : " ان مدينة نجيب محفوظ في تحت المظلة هي مدينة جهنمية ، فوضاها نظام ، وجنونها عقل ، ومذابحها سلام . ولهذه المدينة وجهان ، الوجه الانساني العام ، الذي يقصد به العالم كله ، والوجه المحلي الخاص . ولكن العالم في رؤيا نجيب محفوظ ، لا يعني الكون . ومأساة الانسان في رؤيا نجيب محفوظ ، لا تعني اخفاقه الازلي في كشف سرا الأسرار . وانما عالم نجيب محفوظ هو عالمنا الواقعي المحدود بأنظمة ، ينقصها النظام ، وبقوانين ينقصها القانون . " (٢)

ومن المسلم به ، ان الفنان ، يستخلص مادته من أرضية اجتماعية ، يعيش احداثها ومشكلاتها . وفي عصرنا ، لم يعد المجتمع هو تلك الرقعة من الأرض ، التي يعيش الانسان عليها . صارت المشكلة الانسانية العامة ، هي مشكلة كل مجتمع . وفي هذا يقول نجيب محفوظ ، " انني فني المرحلة الأخيرة ، اتبع الواقعي الجديدة ، وهذه لا تحتاج اطلاقا لمميزات الواقعي التقليدي ، التي يقصد بها ان تكون صورة من الحياة . . الواقعية الجديدة تتجاوز التفاصيل

(١) تحت المظلة - ص ٥ الى ١٦

(٢) شكرى ، غالي - نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف - العدد ٥ ، سنة ١٩٦٩

والتشخيص الكامل ، وهذا ليس تطورا في الأسلوب . بل تغييرا في المضمون . الواقعيه التقليديه ،
أساسها الحياة . فأنت تصورها ، وتبين مجراها ، وتستخرج منها اتجاهاتها ، وما قد تتضمنه
من رسالات . وتبدأ القصة فيها وتنتهي ، وهي تعتمد على الحياة ، والأحياء ، وملايساتهم ، بكل
تفاصيلها . أما في الواقعية الجديدة ، فالباعث على الكتابة ، أفكار وانفعالات معينه ، تتجه
الى الواقع ، لتجعله وسيلة للتعبير عنها . (١)

(١) خراط ، ادوار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة - العدد ٦ ، سنة ١٩٦٣ - ص ٢٧

خاتمة

يعايش نجيب محفوظ ، الموت في قصصه ، كما يعايش الحياة . فالموت ، ظاهرة حياتية ، يمر بها كل انسان . وهو على المستوى الفردي ، أبشع مأساة يتصورها الخيال ، اذ انه لا يعني العدم وحسب ، وانما له ذيول ، وآثار نفسيه ، وعاطفيه ، واجتماعية ، واقتصادية ، تغرش ظلالها في المجتمع ، فتفعل فيه ، سلبا في أغلب الأحيان ، وإيجابا في بعض الأحيان . لكن الموت على المستوى العام - كما يراه الكاتب - ما هو الا " جزء من الحياة ، مثل بندول الساعة . فكما يولد الانسان لغاية استمرار الحياة ، يموت للغاية ذاتها ، بل ربما لغاية ابعد من الاستمرار الرتيب . انه الاستمرار المتطور ، المتطلع الى مزيد من الحرية للانسان ، ومزيد من العدالة ، ومزيد من الكرامة .

وفي مرافقتنا لأعمال نجيب محفوظ منذ سنة ١٩٤٦ وحتى سنة ١٩٦٩ ، لاحظنا التطور في استخدام الكاتب للموت ، من حدث فردي ، اجتماعي مفجع ، الى حدث جماعي ، ميتافيزيقي ، مؤمل بحياة افضل ، عن طريق المعرفة المتمثلة بالعلم والفن .

كان الموت يحدث في أعماله الاولى بلا هدف ، لمجرد انه ظاهرة طبيعية حياتية ، تساعد الكاتب على تجسيد الأحداث بواقعية طبيعية . ولكن في أعماله اللاحقة ، وبدءا من " أولاد حارتنا " ، أصبح الموت يحدث لهدف . أصبح الانسان عنده ، يدفع حياته ، ثمنا لاجتثاث أسرار الكون ، وفض مكنوناته . وأصبح البحث الدؤوب عن العدالة الكونية المطلقة ، والحرية الانسانية المطلقة ، الشغل الشاغل لأبطال " أولاد حارتنا " ، و " اللص والكلاب " ، و " الطريق " ، و " الشحاذ " ، وتلك الأقاصيص القصيرة في مجموعات " بيت سي " السمعة ، و " خمارة القط الأسود " ، و " تحت المظلة " .

المصادر

مؤلفات نجيب محفوظ :

١٩٦٦	-	دار مصر للطباعة	-	همس الجفون	-	١
١٩٦٥	-	" " "	-	خان الخليلي	-	٢
١٩٦٥	-	" " "	-	زقاق المدق	-	٣
١٩٦٦	-	" " "	-	السراب	-	٤
١٩٦٧	-	" " "	-	بداية ونهاية	-	٥
١٩٦٦	-	" " "	-	بين القصرين	-	٦
١٩٦٦	-	" " "	-	قصر الشوق	-	٧
١٩٦٧	-	" " "	-	السَّكِينَة	-	٨
١٩٦٦	-	" " "	-	اللص والكلاب	-	٩
١٩٦٧	-	" " "	-	السَّمان والخريف	-	١٠
١٩٦٥	-	" " "	-	الطريق	-	١١
١٩٦٦	-	" " "	-	بيت سيء السمعة	-	١٢
١٩٦٦	-	" " "	-	الشحاذ	-	١٣
١٩٦٧	-	" " "	-	ثرثرة فوق النيل	-	١٤
١٩٦٦	-	" " "	-	ميرامار	-	١٥
١٩٦٧	-	دار الآداب ببيروت	-	أولاد حارتنا	-	١٦
١٩٦٨	-	دار مصر للطباعة	-	خمارة القط الأسود	-	١٧
١٩٦٨	-	" " "	-	تحت المظلة	-	١٨

- ١ - شكرى ، غالي - المنتمي - الطبعة الأولى ١٩٦٤ - مكتبة الزنارى
- ٢ - حافظ ، صبرى - الاتجاه الروائي عند نجيب محفوظ - مجلة الآداب ، ع ١١ - بيروت ١٩٦٣
- ٣ - خراط ، أد وار - عالم نجيب محفوظ - مجلة المجلة ، ع ٧٣ - القاهرة ١٩٦٣
- ٤ - خشبه ، سامي - شخصيات من ادب المقاومة - مجلة الآداب ، ع ٦ - بيروت ١٩٦٨
- ٥ - الزيات ، لطيفة ، القط
عبد القادر - عياد ،
شكرى - ندوة حول شرثرة فوق النيل - مجلة الآداب ، ع ١٠ - بيروت ١٩٦٦
- ٦ - شكرى ، غالي - نجيب محفوظ وأزمة الانتماء الى الثورة - مجلة مواقف ، ع ٥ - بيروت ١٩٦٩
- ٧ - شوشه ، فاروق - مع الأدباء ، نجيب محفوظ - مجلة الآداب ، ع ٦ - بيروت ١٩٦٠
- ٨ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٦ - القاهرة ١٩٦٥
(مقدمة)
- ٩ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٧ - القاهرة ١٩٦٥
(الموقف التراجيدى)
- ١٠ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٥٩ - القاهرة ١٩٦٦
(المشكلة الميتافيزيقية)
- ١١ - صالح ، احمد عباس - قراءة جديدة لنجيب محفوظ - مجلة الكاتب ، ع ٦١ - القاهرة ١٩٦٦
(المشكلة الميتافيزيقية)
- ١٢ - عبد الظاهر ، محمود - النهاية فى بداية ونهاية - مجلة الآداب ، ع ١١ - بيروت ١٩٦٠
- ١٣ - عطيه ، احمد محمد - نجيب محفوظ وطريق الثورة - مجلة الآداب ، ع ٥ - بيروت ١٩٦٧
- ١٤ - محفوظ ، نجيب - الأدب ، الحرية ، الثورة - مجلة مواقف ، ع ١ - بيروت ١٩٦٨
- ١٥ - محفوظ ، نجيب - ملاحظات على المشكلة - مجلة الكاتب ، ع ٦٠ - القاهرة ١٩٦٦
الميتافيزيقية

- III 16 - Durkheim, Emile - Suicide - A Free Press Paperback, 1966
- 17 - Hendin , Herbert - Suicide and Scandinavia - A Doubleday Anchor Book, 1965 .